فى العراق

الملائكة تموت..

وفـــاء عـــوض

تقديم : خيرى شلـــبى



في العراق

الملائكة تموت ..

لوحة الغلاف : اهداء من الفنان د. خلف طايع

الصور بعدسة الفنان المصور عادل وسيلي



دار الاحمدى للنشر

القاهرة : ١٥ ش عبد الخالق ثروت

تليفاكس ٥٧٥٨٠٩٨

المنـــيا : ٧٣ ش طـــه حســـين

تليفاكس ٣٤٧٨٠٢

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

الطبعة الاولى : يناير ١٩٩٩

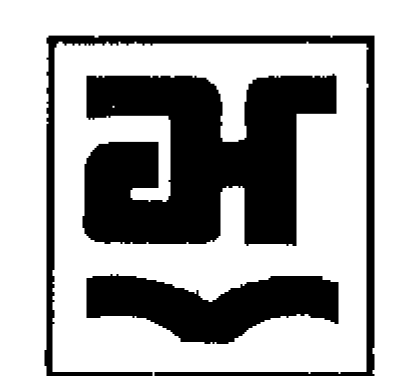
رقم الايـــداع : ٩٩/٢٧٤٨

الترقيم الدولى : x - 16 - 5887 - 977

في العراق
الملائكة تموت ..

وفاء عوض

تقديم : خيرى شلبى



دار الأحمدى للنشر

إهــداء

إلى صغيرى حاتم

احتملت ابتعادك عن حضنى ..

فكانت سطور هذا الكتاب

من أجل أن يظل كل حضن فى أمتنا

دافئاً بأنفاس طفله

وفاء

الاشعار

من ديوان : انشودة المطر:

للشاعر العراقى بدر شاكر السياب

تقديم

بقلم : خيــرى شلبــى

■ يأبى القرن العشرون أن ينتهى قبل أن يدق جرس الانذار بقرب انتهاء النخوة العربية إلى غير رجعة ، تمهيداً للقضاء على العرب قضاءً مبرماً . لقد شهد القرن العشرون أحداثاً كثيرة مؤسفة ، من الحرب العالمية الأولى إلى الحرب العالمية الثانية إلى حرب السويس فحرب استرداد الكرامة العربية فى سيناء ، فالحرب العراقية الإيرانية ، فحرب الخليج ، ناهيك عن كوريا وفيتنام وأنجولا ثم الصرب ضد مسلمى البوسنة والهرسك ، شهد القرن العشرون قيام ثورات تحررية شرفت ثورة ٢٣يوليو فى مصر بريادتها، إندلعت شرارتها من القاهرة فتحررت دول إفريقية وعربية كثيرة ، أصبحت الجزائر وتونس وليبيا والعراق وسوريا واليمن جمهوريات مستقلة ، إندحرت الإمبراطورية العثمانية ، قامت امبراطورية الاتحاد السوفيتى لينقسم العالم إلى معسكرين متنافسين فى سباق القوى النووية والحرب الفضائية الباردة ، ثم سقطت الامبراطورية السوفيتية بعد خمسة وسبعين عاماً ، ليختل ميزان القوى فى العالم وتنفرد أمريكا بمصادر القوة وتفرض سيطرتها على العالم باسم النظام العالمى الجديد ، وهو نظام مزعوم لا وجود له فى الواقع إنما قد روج له العملاء العرب حتى حولوه إلى وهم كبير يعيش على حسابنا ويمتص دماءنا ويستذل أعناقنا ويحصد أرواح أطفالنا ، ليس فى العراق فحسب وإنما فى جميع أنحاء الوطن العربى.

إن البربرية الامريكية الموروثة عن قراصنة رعاة البقر والتى تحركها أصابع الصهيونية العالمية ، تتحرك وفق خطة موضوعة سلفاً ، ومنذ آخر حرب صليبية ، للقضاء على الشعب العربى لاستئصال شأفة العقيدة الاسلامية لكى تخلو المنطقة للحصان الإسرائيلى الأسود ، يبرطع فيها كيفما شاءت له أهواؤه.

ولن يغفر لنا التاريخ أننا تركنا أطفال العراق فى الأسر وسجن المحظورات سنوات هي على وجه التحديد أهم سنوات النمو ، حتى جفت أعدادهم وماتوا من شدة الجوع والعطش وفقدان الدواء ، ثم تركناهم يصرخون تحت قذائف الصواريخ ووقفنا نتفرج على دمائهم المنهمرة.

إن الأمم المتحدة ، إحدى مفاخر القرن العشرين منذ أن كان اسمها عصبة الامم المتحدة إلى أن أصبحت منظمة تضم عشرات اللجان والمنظمات الفرعية قد سقطت وأصبحت ألعوبة فى يد أمريكا تحركها وفق أهوائها واغراضها فى احتلال الشعوب عن بعد، وماموقفها من أزمة الشرق الاوسط ببعيد ، اما مجلس الأمن- أهم أجهزة الأمم المتحدة ودوره المفترض فى حماية السلام العالمى والتكريس له بين الدول - فإنه قد سقط هو الآخر سقوطاً مدوياً ، منذ زمن طويل مضى ، بل إنه طوال عمره فاقد للفاعلية إذ هو يحمل فى تكوينه عامل دماره وذلك بحق الاعتراض (الفيتو) الممنوح للقراصنة الأقوياء ، هذا الحق - الذى لاحق فيه على الإطلاق أحال مجلس الأمن إلى ذريعة وأداة ضد الضعفاء المعتدى عليهم.

إن موقفه من الحروب أشبه بموقف المخلص الموالس الذى تعرفه حوارى البلدان ، وهو فى العادة رجل ألعبان خبيث يتدخل عندما تحتدم معركة بين فريقين « بصنعة لطافة » يشغل الضعيف ويخدره بالكلام حتى يتمكن القوي من الاجهاز عليه ، يطالب المعتدى عليه بضبط النفس ووقف القتال ، ويعطى ظهره للمعتدى متغافلاً عنه حتى يجمع قواه وينقض على ضحيته من جديد !.. وما أظن أننا نجهل موقف هذا المجلس من أزمة الشرق والقضية الفلسطينية ، أو موقفه من مسلمى البوسنة والهرسك ، ولو كان لديه ذرة من شجاعة أو نخوة لأعلن وفاته بالسكتة القلبية إزاء القرار

الامريكى المنفرد بضرب العراق وضرب السودان وضرب ليبيا .

يعلم الحكام العرب أن مجلس الامن وأمه الأمم المتحدة ليس فى صف الضعفاء على الإطلاق ، وأن الأمم المتحدة تستخدم الآن لتنفيذ المخطط الأمريكى الصهيونى بضرب العقيدة الإسلامية فى مقتل وتفتيت العالم الاسلامى الي دويلات مغيرة يسهل التهامها واحدة وراء الأخرى يعلمون هذا علم اليقين ولكن بعضهم بكل أسف أصبحوا مجرد أدوات فى قبضة العدو ، يقدمون أرضهم وأموالهم وأبناءهم ليسهل عليه ضربنا ومحقنا، لينطبق عليهم معنى الآية الكريمة « يخربون بيوتهم بأيديهم ».

وشاركوا فى ذبح أطفال العراق حينما تراخوا فى اتخاذ موقف عربى موحد يرفض سياسة العدوان على الشعوب الآمنة ، لقد صرح الرئيس الامريكى الداعر بأن جميع جيران العراق - يقصد العرب جميعاً ترون موازية موافقون على ضرب العراق ، ولم يتحرك عربى واحد ليرد على هذا التصريح ينفى عن نفسه - على الأقل - تهمة الموافقة على ذبح أطفال العراق- وحين بدأ القصف الأنجلو امريكى على أطفال العراق كانت معظم القنوات الفضائية العربية تذيع الأفلام والفوازير وبرامج التسلية التى لاتقل دعارة عن دعارة الرئيس الامريكى كانت تلك القنوات ترفل فى البلاهة والبلهنية بل إن بعض الحكام العرب منعوا شعوبهم من التعبير عن استيائهم .

إن مايحدث الآن فى الخليج العربى لهو أكبر مصيبة حلت بالعرب فى تاريخهم الحديث.

إنها لكارثة تتجاوز مأساة اطفال العراق لتتصل بوجودنا على الخريطة.

بدأت الكارثة الحقيقية يوم اسعانت دولة عربية بالقوة الأمريكية، ومن المؤكد أنها كانت تعي جيداً بأن القوة الأمريكية متى دخلت أرض العرب وتمركزت فإنها لن تغادرها مطلقاً، وكيف تغادرها وهي قد حصلت على فرصة ما كانت لتحلم بها، فرصة التواجد العسكري المكثف في هذه البقعة بالذات بمباركة وتأييد من أصحابها، .... لقد

سنت هذه الدولة العربية قانوناً فعلياً تتعامل به الدول العربية مع بعضها البعض ، ماتكاد دولة تستشعر العدوان أو حتى تتوهمه فى دولة شقيقة حتى تستغيث بهذه القوة المرابطة على أرضنا وحتى لو لم تستغث فإن هذه القوة المرتزقة على استعداد للتدخل من تلقاء نفسها ، وفى يدها ذريعة الكذب والبهتان.

....

ما يحدث للعراق الآن ، وكما سيحدث للسودان غداً، ولليبيا بعد غد ، ولكل دولة عربية ترفع رأسها أو صوتها ، ولماذا تتردد هذه القوة فى الهجوم طالما أنها تتقاضى تكاليف الضرب أضعافاً مضاعفة ؟!.

وبهذا يكون بترولنا قد جاء وبالاً علينا ، فحيث كان من الواجب أن ننفقه على برامج التنمية العربية والتقدم ، وأن نؤسس لمستقبل أولادنا ، وأن نكون بالفعل خير أمة أخرجت للناس ، أمة جديرة بهذا الكنز الثمين الذى وهبه الله لارضنا ، إذا بنا نستخدمه فى تخريب بيوتنا وإبادة شعوبنا واستئصال شأفة عقيدتنا الإسلامية.

الجانب الآخر لهذه الكارثة ، الحد الآخر للخنجر المسنون ، هو أن عدونا التاريخى المباشر ، اللدود ، إسرائيل ، قد أصبح سيداً علينا بدون أدنى مواربة ، إن ترسانة الاسلحة المتمركزة فى الخليج لايمكن أن تكون لردع العراق وحدها حتى مع التسليم جدلاً بأن العراق تنتج أسلحة الدمار الشامل المزعومة ، والواقع أن هذه الترسانة الخطيرة من الأسلحة مجهزة لخطة استراتيجية كبرى موازية لخطة اسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ، مجهزة للعالم العربى كله ، وللثورة الإيرانية التى لايغيب شبحها عن مخيلة اسرائيل وامريكا وللعالم الاسلامى الذي وضع كهدف استراتيجى أمريكى لابد من القضاء عليه بعد أن تخلصت من عدوها التقليدى : شيوعية الاتحاد السوفيتى ، وإذا كان الله قد وهب العالم الاسلامى كثرة فى العدد ووفرة فى الطاقة والمال فإن أمريكا ومن ورائها إسرائيل لن يغمض لهما جفن إلا بعد استلاب قواه وتدمير أصلابه.

إسـرائيل الآن مـسنودة ، قلمت مـعظم أظافـر الـعـرب ، ولسـوف تفـرض سـيطرتها وتواصـل العدوان على جـميع العـرب ، فإذا مـاهبت دولة عـربيـة للدفاع عن نفسهـا فى مواجهـة العدوان الاسـرائيلى ستتولى القوة الامـريكية المتمركزة فى أحشـائنا إسكاتها إلى الأبد.

كل هذا لأننا أظهـرنا الـضعف والتخاذل والتفكك ، وأننا لانزال في احتياج لحاكم أجنبى يفصل بيننا ويردعنا ، لا لمصلحة طرف من الأطراف العربية بل لمصلحته هو ، ومصلحة حليفته المدللة.

ولكن أبرز عـوامل الضعف كانت فى الجامعة العـربية ، بيت العرب كما هو مفترض.

وكيف يمكن افتراض أن الجامعة العربية يمكن أن تكون قوية فى ظل أنظمة عـربية متهـالكة لـم تتخلص من الـنزاعات القـبلية ، فـى حين ورث بعـضـهـا مناهج الإحتـلال الأجنبى فى التعامل مع شعوبهم ، الجامعة العـربية هـى في نهاية الأمر انعكاس لهذه الأنظمة وتمثيل لها ، والواقع انها بلا فاعلية على الإطلاق ، يكفى أنهـا تعـجـز دائمـاً عن إصـلاح العـلاقـات بين بعض الدول العربيـة وبعضها الآخر ، ولقد سلمت بوضع كل من العراق وليبيـا فـى سجن الخطر والعقاب الأمريكى الجائر ، والواضح أنها جفت ، وكان مـوقفها إزاء القصف الامـريكى الإنجليزى للعراق صباح الخـميس المشئوم قبل حلول شهر رمضان بساعات موقفاً زرياً ومثير للحزن والسخط الشديدين.

مـأساة العالم العـربي - إذن - هـى الحكم القبلي حتى فى ظل بعض النظم الجمهورية • كل حاكم يتصرف على اعتبار أنه مالك للبلاد برمتها ، القرار قراره والرأى رأيه.

وهذا بالضبط مايوافق هوى أمريكا ويريحها فى تجميع الموافقات المبدئية على فعل ماتريد فى المنطقة.

فليمت أطفال العـراق ، ليذهـب العراق كله إلى جـحيم ، لتذهـب الشـعـوب العـربية كلها إلى المقصلة بشرط ألا تهتز العروش ويبقى كل صاحب عرش

فوق عرشه ، ولكن هذا - بالطبع - ضد طبائع الأمور، ضد منطق التاريخ ، فالشعوب هى الأساس ، ولايستقر عرش على شعب ساخط ، مهما توسل العرش بأغنى أسلحة القمع والاستبداد وبعض حكامنا ينسون هذا كثيراً مع الاسف ولعلهم قد أفاقوا حينما هبت الشعوب العربية والاسلامية تندد بالاعتداء الأمريكى الانجليزى على العراق - ظهرت اطراف من حقيقة المارد العربى الذى لو انطلق سوف يصنع غده بنفسه، إن هبة الشعوب العربية هذه هى التى أجبرت أمريكا على التراجع ، وهى التى تتعشم ان يكون لها فى القريب العاجل أدوار مهمة وحاسمة.

إن حصار العراق لم يمنع الشعوب العربية من زيارة أهليهم وإخوانهم فى بغداد والبصرة والكوفة والموصل ، كان التواصل قائماً رغم مشقة السفر على الطرق البرية ، وقد انطلقت من مصر أكثر من قافلة تحمل الدواء والكتب والأوراق ولبن الأطفال لأبناء العراق ، وضمن واحدة أو أكثر من هذه القوافل سافرت زميلتنا الصحفية وفاء عوض لتتطمئن على ماحدث لأطفال العراق - سافرت بقلب أم حديثة عهد بالامومة ، وبعين صحفية تريد أن تتوقف أمام كل شيء لتتفحصه وقد انطبعت على قلبها آثار العدوان البشع ، فأرادت أن تشرك كل الأمهات فى العالم فى همومها التى عادت بها من أرض العراق أن تتحمل كل ام جزءاً من الهم ، وكل رجل جزءاً من المسئولية ، فسطرت صفحات هذا الكتاب ، وهى لم تقصد أن تؤلف كتاباً تزيد به حجم الورق المطبوع فى بلادنا ، إنما أرادت ان توجه رسالة إلى قلوب العالم لعله يخرج عن صمته وينقذ مايمكن إنقاذه من البقية الباقية من فلذات أكبادنا فى العراق.

خيرى شلبى

اما قبل

■ أعترف.. أنه ما كان يمكن لكتابي هذا .. - أو لنقل شهادتي هذه- أن تعرف طريقها إلي حروف المطبعة لولا عملية «ثعلب الصحراء» !!

فكما أن دوافع السفر تختلف فإن دوافع الكتابة عن الرحلة تختلف أيضا ، وإذا كانت مقطوعة موسيقية عن ضحايا «ملجأ العامرية» الذين أزهقت أرواحهم بفعل الصاروخ الأمريكي عام ١٩٩٢.. هي التي جعلتني أشد الرحال مرتين إلي العراق.. أتحمل مشقة السفر بالبر والجو لأكثر من ٦٥ ساعة ذهاباً وإياباً، لأشاهد بنفسي أشلاء ضحايا ملجأ العامرية.. أتنفس بين أروقته رائحة الموت.. أجري حوارات مع صور الموتي المنتشرة بطول وعرض حائط الملجأ، بينما تحوم حولي أرواح الأطفال البريئة التي مزقت الصواريخ أجسادهم الصغيرة فتناثرت هنا وهناك ، ولاتزال أشلاؤها ملتصقة بجدران الملجأ شاهدة علي مذبحة العامرية حتي اليوم.

أقول إذا كانت مقطوعة موسيقية هي التي ساقتني إلي السفر إلي بغداد .. فإن الذي دفعني لتسجيل شهادتي هذه هو ماشاهدته مساء الأربعاء الحزين ١٦ ديسمبر ١٩٩٨ .. من بث مباشر «لموت علي الهواء» تنقله المحطات التليفزيونية من بغداد مباشرة إلي عيون البشر بكل بقعة من بقاع الأرض.. لتشاهد ماذا يمكن أن تفعل أمريكا وبريطانيا ببلد صغير مستضعف.. لترى ماذا حدث لشعب مسلم كان يستعد لاستقبال شهر رمضان ضارعا إلي الله

أن يرفع عنه غمة الحصار والجوع والمرض، فإذ بالصاروخ الأمريكي - وقد كتب علي أحد جانبيه «هدية رمضان» - يقطع سكون الليل ويفتك بالأسر الآمنة في عقر ديارها..

وأظل أنا واقفة مكاني أمام شاشة التليفزيون.. مشدوهة وأنا أري بيوتا أعرفها.. دخلتها وجلست مع أهلها أقاسمهم فنجان الشاي وقطعة الخبز.. أراها وأراهم الآن أمامي يتحولون إلي أشلاء تتناثر في الهواء مختلطة ببقايا الصاروخ الوحشي..

وأصرخ بأعلي صوتي: يا الله.. هذا المبني الكبير الذي يجاور وزارة الإعلام (هدف الصاروخ) أعرفه.. دخلتها مع «هبة» ، صديقتي في رحلتي الثانية إلي العراق ، عندما دعانا الصديق الفنان «عزيز خيون» وزوجته «عواطف نعيم» لنشاركهما طعام العشاء، وكان الحديث عن هموم الفنان المحاصر.. تري هل طالهما الصاروخ..؟ آه يا أصدقائي!!

وهذا فندق الرشيد.. كان يضمني بين جدرانه منذ شهور قليلة.. وها هو العدوان يطاله.. فهل أطاح الصاروخ برأس موظف الاستقبال الذي كان دائم الابتسام في وجوهنا رغم المأساة قائلا: مرحبا يا أصدقاء.. مرحبا يا أشقاء!

هل عجل الصاروخ بموت بقايا أطفال العراق الذين تركتهم هناك بالمستشفيات يعانون آلام المرض أو الحرمان من كوب الحليب، ليلحقوا بأقرانهم الذين شاركت العراق في تشييع جنازاتهم بعد أن قتلتهم أمريكا عمداً حين منعت عنهم الغذاء والدواء!

عشرة أيام في بغداد كانت رحلتي الأولي.. وكان «الجمعة» ٣٠ من يناير ١٩٩٨- بينما الأخبار المشئومة تؤكد أن أمريكا ستضرب العراق إذا لم يستسلم لقرارات مجلس الأمن بتفتيش كل القصور الرئاسية دون قيد أو شرط - هو اليوم الأول لي في العاصمة العراقية بغداد ضمن أعضاء الوفد الشعبي المصري لإغاثة أطفال العراق..

كان مشهد الليل وهو ينسج خيوط العتمة لتلف المدينة الهادئة - المترقبة

للموت في كل لحظة..، هو آخر مشهد رأته عيني قبل أن أرحل عن بغداد..
أردد مع كاظم الساهر أغنية : آه.. آه.. يا عرب ..
وما بين الذهاب إلي بغداد والرحيل عنها .. كانت سطور هذا الكتاب..

وفـــاء عـــوض

القاهرة

٣٠ - ديسمبر - ١٩٩٨

قبــل السفــر

●●● رأيت قوافل الأحياء ترحل عن مغانيها تطاردها، وراء الليل، أشباح الفوانيس. سمعت تشيج باكيها، وصرخة طفلها، وثغاء مواشيها، وفي وهج الظهيرة صارخا : «يا حادي العيس» على ألم مغنيها.

■ فى قلب القاهرة.. فى نوفمبر ١٩٩٧ كان يجلس هناك.. يتوسط خشبة المسرح.. تلفه دائرة ضوئية فتفصله عن زماننا ومكاننا فيبدو معها كناسك فى زيه الأسود وياقته المرتفعة قليلا تغطى عنقه النحيل، بينما يغطى باقى جسده النحيف «عود» من طراز عراقى، فلم يعد يظهر منه سوى ساقين نحيلتين ترتكز إحداهما بقوة فوق خشبة المسرح بينما تحتل الساق الأخرى مكانها فوق قدم حديدية.. وكان صوته يأتينا هادئا حزينا وهو يعلن عن مقطوعته الموسيقية (أطفال ملجأ العامرية).

كان «نصير شمة» عازف العود العراقى يتكلم عن أطفال ماتوا، وعن خيانة أمريكية وعن خرائط مبنى ملجأ العامرية التى سربتها السويد إلى الأمريكان.. وعن الصاروخ الأمريكى الذى سقط من فتحة التهوية بملجأ العامرية ليزهق مئات الأرواح البريئة من الأطفال والنساء والشيوخ، وكيف أنه قضى ليال وليال داخل الملجأ بعد أن انتشلوا جثث الضحايا بصحبة عوده ليؤلف مقطوعته الموسيقية «أطفال ملجأ العامرية».

نصير كان يتحدث عن مذبحة ملجأ العامرية التى حدثت بالعراق فى أوائل التسعينات وكأن دماء الضحايا ماتزال تسيل حتى اليوم فتشعل نار ثأره من جديد.. وحينما بدأ فى عزف مقطوعته انطلقت النغمات فى فضاء المسرح نسمعها صيحات أطفال يلعبون ويمرحون.. وأغمضت عينى فإذا بالأطفال

يقتربون منى.. يسبحون داخل دائرة جفونى المغلقة رأيتهم يلعبون ويمرحون ويغنون.. كانت أصوات ضحكاتهم الصافية تنبعث نغمات رقيقة عذبة من بين أوتار عود نصير.. لكن سرعان ما تخلل تلك النغمات صوت قوى - صوت اهتز له جسدى كله فوق المقعد.. صوت أعرفه ومازلت أذكره جيدا، حينما كنت طفلة صغيرة ألهو مع أطفال الجيران.. نفترش سلالم منزلنا القديم فى بورسعيد وكان هذا الصوت يأتينا فتفزع قلوبنا الصغيرة وأجرى لأحتمى بصدر أمى.. بينما يسرع أبي ليطفأ كل أنوار بيتنا معلنا أن ما سمعناه هو صوت «غارة إسرائيلية» ولابد من اللجوء إلى «الملجأ» حتى تأتى صوت صفارة الأمان.

وفى مقطوعة «أطفال ملجأ العامرية» لم أسمع صوت صفارة الأمان - فقط سمعت أصوات انفجار صواريخ تعلو وتعلو بينما رأس «نصير» يقترب أكثر وأكثر من حافة العود فلم أعد أدرى هل سيحطم برأسه العود أم أن رقبته تقترب من مقصلة؟.. شيئا فشيئا رأيت رأسه ترتكز برفق فوق حافة العود وتلاشت أصوات إنفجار الصاروخ.. ولم أعد أسمع صوت ضحكات أطفال نصير.. فقط سمعت صوت زقزقة عصافير تحوم حولى بينما أخذ الصمت يلف المكان، وتلاشى شعاع الضوء من فوق جسد نصير.. وتحولت قاعة المسرح الصغير بدار الأوبرا المصرية إلى سرادق للعزاء..

ويوما وراء يوم.. لم تفارقنى أصوات زقزقة عصافير نصير.. لم تعد تغادرنى.. لقد سكنتنى أرواح أطفال ملجأ العامرية.. حتى فى منامى ها هى تلح وتلح علىّ.. تطالبنى بالرحيل بها إلى هناك.. إلى ملجأ العامرية..

أيام كثيرة مرت وأنا عبثا أحاول أن أتخلص من هذه الأصوات.. أحاول أن أسكتها.. ولكنها كانت قد عقدت العزم على ألا تغادرنى إلا هناك.. فى ملجأ العامرية !!

رائحة الموت

●●● هي وجه أمي في الظلام وصوتها، ينزلقان مع الرؤي حتي أنام وهي النخيل أخاف منه إذا ادلهم مع الغروب واكتظ بالأشباح تخطف كل طفل لا يؤوب من الدروب.

■ جاءنى صوت أمى على التليفون غاضبة وهى تسألنى: «صحيح أنتِ مسافرة العراق ؟ عراق إيه يا بنتى.. أنت ما بتسمعيش الأخبار كل يوم بتقول إن أمريكا ح تضربها.. هو أنا مستغنية عنك ولا إيه!!».. كانت نبرات صوت أمى يشوبها الخوف والقلق وهى ترجونى أن أصطحب ابنى «حاتم» وأذهب به إلى بورسعيد لقضاء عطلة أيام عيد الفطر بدلا من الذهاب إلى الموت بإرادتى..

وكنت أحاول أن أهدىء من روع أمى وإقناعها بأن هذا عملى كصحفية ولا يصح أن أعتذر عنه.. ثم إننى مسافرة ضمن وفد شعبى طبى لإغاثة أطفال العراق وهذا حلم وشرف لى ولا داعى للقلق.. ثم إنها العراق يا أمى.. العراق التى لم أزرها منذ تسع سنوات.. ووحشونى ناسها وأهلها ولياليها الجميلة..

كان كل شئ قد حسم داخلى.. تذكرة الطيران إلى سوريا فى حقيبة يدى الصغيرة.. بينما ترقد حقيبتى الكبيرة هناك فى الحجرة الأخرى فى انتظار الرحيل غدا موعد مغادرة الوفد الشعبى الطبى لإغاثة أطفال العراق من القاهرة إلى دمشق ومنها تبدأ الرحلة البرية إلى بغداد، تحت اسم «قافلة العيد».

كان اليوم هو آخر أيام شهر رمضان. لا أتذكر أن النوم قد عرف طريقه إلى جفونى فى هذه الليلة.. كانت القاهرة فى كامل زينتها وهى تستعد لاستقبال أول أيام عيد الفطر المبارك، ولم أكن أنا السهرانة الوحيدة بالتأكيد، ولكننى أيضا لم أكن مثل كل السهرانين الذين تزدحم بهم شوارع القاهرة يشترون ملابس العيد الجديدة لأطفالهم، كنت أفكر فيما يمكن أن أخذه معى لأطفال العراق، هدفى فى رحلتى.. وكان «الحليب» هو ما فكرت فيه.. كل الذين سافروا إلى العراق يعودون بحكايات مآسوية عن أطفال يموتون بسبب نقص الحليب والدواء.

ساعات الليل تمر بطيئة، بطيئة.. وذكرياتى فى العراق أيام زيارتى لها قبل الحصار تحاصرنى فأجد صوتى يعلو خلسة: «آه.. يا عراق».. كنت قد عرفت العراق كما عرفها كل من زارها قبل الحصار.. بمدنها وشوارعها الحميمة التى لا يكاد المرء يخطو فيها خطوة حتى تعود به الذكريات إلى ماضى عريق يضرب فى عمق التاريخ.. كانت العراق رغم خروجها من حرب عشر سنوات مع «إيران» فى الثمانينات لاتزال فتية قادرة على العطاء، لا تخلو لياليها الجميلة من السمر.. تحتضن بحب ودفء كل من يطرق بابها.. «آه.. يا عراق» أين ذهبت لياليك الجميلة؟ هل ستحتضنيني مثل كل مرة رأيتك فيها ؟.. أم أننى أنا التى سأحتضنك هذه المرة؟ وماذا ستجدين داخل حناياىَّ يا عراق، امرأة مهزومة بفعلها العربى !! أم امرأة عاجزة أمام قهر الإنسان لأخيه الإنسان.. أم امرأة لا تملك إلا الشجب والتنديد أمام زيف صيحات الجمعيات التى تنادى بحقوق الإنسان وحق كل طفل فى الحياة بينما الأطفال يموتون هناك بفعل الصواريخ والجوع والمرض.

فى الصباح.. كانت أصوات زقزقة عصافير «العامرية» قد سدت أذناى تماما فلم أعد أسمع حتى صوت ابنى الوحيد «حاتم» ابن الخمس سنوات الذى سأتركه لأول مرة فى سفرة طويلة.. ولم أعد حتى ألتفت إلى نظرات زوجى وهو يشفق علىَّ من هذه السفرة الشاقة بالبر إلى بغداد.

وضعت قبلة على جبين صغيرى وأوصيت زوجى به وكأننى أودعهما إلى

الأبدا! واندفعت داخل السيارة التى ستقلنى إلى مطار القاهرة.. كانت الساعة تشير إلى الخامسة مساء عندما وصلت إلى صالة المغادرة التى احتشدت أركانها بصناديق الأدوية والمحاليل والحليب والبطاطين ـ كتب عليها عبارة «هدية من الشعب المصرى إلى الشعب العراقى» - فى انتظار دورها للعبور من جمرك المطار إلى الطائرة فى رحلتها مع أعضاء الوفد الشعبى المصرى إلى مطار دمشق ومنه تبدأ «قافلة العيد» فى التحرك عبر البر إلى بغداد.

كان الوفد الشعبى المصرى يضم عشرين عضوا ما بين أطباء وكتاب وصحفيين ومحاميين، جميعا وضعنا أمامنا هدفا واحدا وهو أن يستشعر هذا الشعب العريق أن هناك شعبا شقيقا له فى الوطن العربى يتذكره.. يتألم لآلامه ويتعاطف مع أطفاله الذين يموتون كل يوم من جراء الحصار اللعين.. نعم.. كانت المعونة التى يحملها الوفد من أدوية وألبان وبطاطين والتى دفع ثمنها رجل الشارع المصرى معونة بسيطة جدا لا تقارن باحتياجات شعب تعداد سكانه أكثر من ٢٣ مليون نسمة يتساقط الكثيرون منهم كل يوم بفعل الجوع أو المرض!! لكننا أردنا فقط أن نقول لكل طفل فى العراق إن أخيه الطفل المصرى الذى لا يعرف مفردات السياسات العربية ولا مخططات الإمبريالية الأمريكية، يتذكره.. يحاول إنقاذه ولو بكوب حليب أو قرص اسبرين.

بعد ساعة واحدة من وصولنا إلى المطار.. تحولت صالة المغادرة إلى خلية نحل، الكل يعمل بحماس، الأطباء يعيدون احكام صناديق الأدوية، وبقية أعضاء الوفد يتسابقون إلى حملها ووضعها فوق «السير» الذى ينقلها إلى حيث تحمل فى مخزن الطائرة.

ألمح وجهه من بعيد، إنه الكاتب الصحفى الناصرى الكبير عبدالعظيم مناف، أهرول إليه فابتسامته دائما رقيقة تشعرك بالدفء والأخوة.. أسأله لماذا اخترتم هذه المرة «سوريا» طريقا إلى بغداد وليس الأردن كما هو معتاد مع الوفود الشعبية السابقة ؟

تتسع ابتسامته وهو يقول : إن من أهم أهداف رحلتنا إلى بغداد هذه المرة يا عزيزتى هو اختراق الحدود السورية العراقية المغلقة منذ عام ١٩٨٠، ونحن سنكون أول من يعبرها بعد كل هذه السنوات وبذلك يكتمل مثلث «الجسارة والجدارة والحضارة».

يقطع حديثنا صوت الميكروفون معلنا اقتراب موعد إقلاع الطائرة السورية المتجهة إلى دمشق وإنه يتحتم على الركاب الاتجاه إلى الطائرة.

على متن الطائرة تأتى جلستى بجانب «حمدى هيكل»، شاب فى بداية الثلاثينات يعمل محاسبا بإحدى الشركات، وقد وهب حياته للدفاع عن حقوق الفلاحين وغادر السجن منذ أيام قليلة بعد أن تم القبض عليه فى قضية تنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر للأراضى الزراعية، بدعوى الإثارة والتحريض..

من المقعد الخلفى لمقعدى يأتينى صوت د. شيرين أبو النجا مدرس الأدب الإنجليزى بآداب القاهرة – وهى إحدى عضوات اللجنة الشعبية لإغاثة أطفال العراق – كانت تتحدث عن كميات الأدوية التى تركناها خلفنا بالمطار باعتبارها وزنا زائدا عن حمولة الطائرة المسموح بها، وعن الفنان «نصير شمة» الذى ينتظرنا بمطار دمشق ليصطحبنا إلى بغداد فى سيارة خاصة تقلنا إلى الحدود السورية العراقية، وعن الشاحنة التى تنتظر علي الحدود السورية العراقية لتحمل أطنان الأدوية والحليب والألبان، وكذلك عن سيارة وشاحنة عراقيتين ستقلان أعضاء الوفد والأدوية إلى بغداد.

على متن الطائرة أسمع بعض أعضاء الوفد الشعبى المصرى من أطباء وصحفيين وقد دخلوا فى دائرة من التعارف والتحاور حول الوضع الصحى فى العراق وما يمكن أن يقدموه من مساعدة للمرضى هناك.

وفى درجة رجال الأعمال بالطائرة، يدعونى المنتج السينمائى السورى «حسين القلا» ـ الذى تصادف سفره إلى وطنه سوريه فى نفس اليوم ـ إلى فنجان شاى.. وعندما علم باتجاهنا أخذ يحدثنى عن الرحلة البرية الشاقة التى تنتظرنا من سوريا إلى بغداد وعن المعاناة التى يلاقيها الفنان العراقى

فى ظل الحصار والتى يدفع حياته ثمنا لها يوميا.. «الوضع سئ ومحزن ويجلب العار على العالم العربى».. هكذا قال .

كانت الساعة تشير إلى الحادية عشرة مساء عندما أعلن قائد الطائرة أننا قد وصلنا إلى مطار دمشق، وأن درجة الحرارة لا تتجاوز خمس درجات. بمجرد دخولنا صالة الوصول بمطار دمشق وما أن انتهينا من الاجراءات حتى رأيت «نصير شمة» فى انتظارنا وقد ارتسمت على وجهه علامات هى خليط من القلق والحيرة والتوجس.. اقتربت منه وسألته عما به، فأخبرنى أن هناك أزمة تواجهنا فى مسألة الإفراج عن شحنة الأدوية التى نحملها معنا حيث أن الموظفين بجمرك المطار ليست لديهم أوامر صريحة بالإفراج عن هذه الشحنة!! سألته كيف وأنا أعلم من القاهرة أن الفنانة السورية «رغدة» ـ وهى عضوة فى اللجنة العليا المنظمة للوفد ـ قد أجرت اتصالها مع المسئولين السوريين وأن هناك بالفعل موافقة بالإفراج عن شحنة الأدوية؟

ساعات كثيرة مرت بينما أعضاء الوفد يفترشون بحقائبهم بهو صالة الوصول بمطار دمشق بعد أن فشلت كل محاولات نصير شمة والكاتب عبدالعظيم مناف فى الوصول مع كبار المسئولين السوريين عبر الهاتف إلى حل..

القلق بدأ يتسرب إلى وجوه أعضاء الوفد الشعبى.. فرحتنا بقطع نصف المسافة إلى بغداد بدأت تتبدد.. الكل يتساءل.. وما الحل؟! هل سنعود إلى القاهرة؟.. أى عودة هذه ؟ ـ أتساءل فى صمت - بينما أصرخ من داخلى ماذا يقول هؤلاء الناس، ألا يسمعون صوت أطفال ملجأ العامرية وهم يطالبوننى بالرحيل إلى العراق !!

مع الساعات الأولى من الصباح، كنا قد فقدنا جميعا الأمل فى السفر إلى بغداد فى هذا اليوم، فلابد إذن من الانتظار حتى موعد تغيير الوردية بجمرك المطار، فربما تكون لدى أفراد الوردية التالية تعليمات بالإفراج عن شحنة الأدوية ـ هكذا قالوا لنا ـ وبدأ أعضاء الوفد يتسربون واحدا وراء

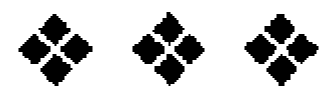
الآخر إلى حيث يقف الأتوبيس الذى سيقلنا إلى بغداد !

كانت برودة ليل فبراير تتسرب إلى أجسادنا المتعبة ونحن نقطع الطريق من بوابة المطار حتى موقف الأتوبيس فى مسافة لا تقل عن الكيلو متر، فنشعر وكأن قلوبنا جميعا جمدت بين ضلوعنا.. وداخل الأتوبيس كان الجميع قد استسلم للنوم الذى جافى جفونى منذ أيام، فذهبت لأشارك الساهرين من أعضاء الوفد جلستهم فى كافتيريا المطار.. وهناك كان الجميع يلتف حول نصير شمة: الكاتب أحمد بهاء الدين، والباحث أمين اسكندر والكاتب الصحفى عبدالعظيم مناف ود. شيرين أبو النجا ود. ناصر النادى بينما نصير يعيد على أسماعنا حكاية مذبحة الأطفال فى ملجأ العامرية وأيامه القاسية التى قضاها بين الضحايا يتنفس رائحة الموت لكى يؤلف مقطوعته أطفال ملجأ العامرية.. «ثانى يا نصير» ؟!! هكذا قلت لنفسى.. ألا تدرى أن أرواح هؤلاء الأطفال تسكننى منذ أن عزفت مقطوعتك بالقاهرة؟ ألا تعرف أننى لم أعد أسمع إلا صوت زقزقة عصافيرك؟ كُف بالله عليك عن هذا الحديث.. لقد تركت طفلى الصغير هناك !! وها أنا أشد الرحال معك إلى موطن ولادة معزوفتك.. حيث ترقد جثث عصافيرك التى لم أعد أسمع غير زقزقتها لحنا.. منساقة أنا فى رحلة إلى مسرح جريمة خرج منها الجانى ملطخا بدماء ضحاياه بينما وقف الخلق ينظرون جميعا !

الناس فى بلادنا يا عصافيرى لم يعد يؤرقهم أن يذبح الأطفال أو أن يموت المستقبل داخل الأرحام، الناس فى بلادنا يمشون «بجانب الحائط كالمرأة مكسورة الجناح».. ولكن من كسر جناحك يا بلاد العرب؟ من كسر جناحك يا موطن الأنبياء والأديان وبلاد الفتوحات ؟

مثلث «الجسارة والجدارة والحضارة» - عبارة قالها الكاتب عبدالعظيم مناف لتخترق أذنى وتوقظنى من غفلتى وسط الحضور.. كان مناف يتحدث عن هذا «المثلث الحلم» فيعيد للأذهان سنوات الستينات وحلم الوحدة العربية.. نعم مناف لايزال يعيش هذا الحلم، طوال الرحلة وهو يخطب فينا.. يحدثنا بحماس عن حلم العروبة، حتى جريدته التى صادروها كان قد أسماها «صوت العرب» !

أى صوت للعرب هذا يا أستاذى ؟!! صوت العرب سكت عن الكلام المباح والوحدة العربية أصبحت ذكرى حلم مات مع زعيم العروبة جمال عبدالناصر.. وكل ما بقى من الحلم هو واقع أليم يجسده ما يحدث لأطفال وشعب العراق تحت مرأى ومسمع كل العرب.



الساعة الآن الثامنة صباحا، ثانى أيام عيد الفطر المبارك موعد تغيير وردية موظفى مطار دمشق.. الأمل بدأ يدب فى نفوسنا والدماء بدأت تعرف طريقها إلى وجوهنا من جديد.. وعيوننا نصف النائمة استيقظت واتسعت ونحن نتلقى نبأ الإفراج عن شحنة الأدوية.

فى التاسعة والنصف تماما كنت قد اتخذت مقعدى فى الأتوبيس الذى سيقلنا إلى الحدود السورية العراقية وسط فريق عمل مجلة «نصف الدنيا»: أسامة الرحمى، المصور الفنان محمد حجازى.. على السيد.. صحفيون شبان جميعهم مثقف ومتحمس.. زاروا العراق قبل شهرين وها هم فى رحلتهم الثانية مرة أخرى ليكملوا شهادتهم للتاريخ عما يحدث فى العراق من جوع ومرض وموت فى ظل الحصار الجائر. كانت هذه هى المرة الأولى التى أرى فيها دمشق.. ومن خلف زجاج نافذة الأتوبيس كان مشهد الجبال وهى تحتضن البيوت الدمشقية بينما الأشجار تلقى بظلالها على النوافذ والشرفات يستهوينى.. الأطفال تتناثر هنا وهناك فى شرفات المنازل كالفراشات فى أثوابهم الجديدة..

بعد حوالى أربع ساعات غادرنا الحدود السورية العراقية بعد أن انتقلنا وأمتعتنا إلى أتوبيس عراقى، ومن خلفنا سارت الشاحنة العراقية التى تحمل المعونة الطبية لشعب العراق.. وكالطائرة فى رحلتها للإقلاع عن سطح الأرض، أخذ الأتوبيس يتهادى بنا فوق الطريق الصحراوى الذى مهده العراقيون أنفسهم أثناء الحرب العراقية الإيرانية وبلغت تكلفة كل كليو متر فيه مليون دولار.

الصحراء تمتد حولنا باتساع الأفق.. تتدرج ألوان الرمال والجبال بين

اللونين البنى والرمادى.. يقترب اللون البنى بينما اللون الرمادى يعانق السحاب هناك على امتداد «الشوف».

طوال الطريق من دمشق وحتى الحدود السورية العراقية وصوت المذياع لا يكف عن بث أخبار تؤكد أن أمريكا ستضرب العراق إذا لم يستسلم لقرارات الأمم المتحدة بتفتيش كل القصور الرئاسية دون قيد أو شرط، وبقدر ما كانت هذه الأخبار المشئومة تحمل رائحة موت مؤكد ينتظرنا هناك فى بغداد، بقدر ما كانت تزيدنا إصرارا على مواصلة هدفنا، فليكن الموت الذى ينتظرنا خير شاهد على ما يحدث للشعب العراقى.

ومن أحد المقاعد الأمامية بالأتوبيس كان نصير يصرخ: ليضربوا العراق.. ليخلصوا الناس من عذاب انتظار الموت كل يوم. يا أصدقائى : الناس فى العراق الآن يموتون ، ليس بالصواريخ الأمريكية ولكن من الجوع والمرض والمياه الملوثة والجو المسموم.

طوال الطريق من الحدود السورية العراقية وحتى وصولنا إلى بغداد وأنا أحاول أن أرسم صورة لما يمكن أن يكون عليه العراق وشعبه الآن.. كانت آخر مرة زرت فيها العراق فى أواخر عام ١٩٨٩ بمناسبة مهرجان المسرح العربى.. أى قبل أزمة العراق والكويت بشهور قليلة، كان ليل العراق ساحر ومسارح بغداد كلها مضاءة، مسرحيات من كل الدول العربية، محمود يس وحسين فهمى وألفريد فرج ونهاد صليحة ولينين الرملى وعصام السيد كانوا ضمن وفد مصرى شارك فى مهرجان المسرح العربى.. احتفاء خاص من كل الدول العربية بأعضاء الوفد المصرى عند عرض المسرحية المصرية «أهلا يا بكوات».. ندوات ومناقشات وسهرات حتى الصباح.

الصحراء مازالت بامتداد الأفق، شمس فبراير تشد الرحال مبكرة، اللون البنى يزداد قتامة من حولنا.. والأسود يطرد الأزرق فى عنان السماء.. الأمطار تتساقط فتحجب الرؤية عن السائق لكنه مازال مصرا على الرحيل بنا سريعا..

عود نصير يرقد على المقعد بجانبى.. أتلمسه.. أتحسس برفق أوتاره..

فتنطلق زقزقة العصافير.. أنظر حولى، الكل فى الأتوبيس قد استسلم للنوم.. الآن لا أحد يسمع صوتكم غيرى يا عصافيرى الصغيرة التفت خلفى منادية الزميل أسامة الرحيمى لأوقظه من نومه، وما أن فتح عينيه حتى فاجأته: حدثنى عن ملجأ العامرية.. ألم تقل لى إنك زرته فى زيارتك السابقة للعراق ؟

نظر إلىّ أسامة نظرة لم أفهمها.. نظرة تحولت معها عيناه من خلف زجاج نظارته الطبية إلي بحر من الأسى وهو يقول: وماذا تريدن أن تسمعى؟! الأفضل يا عزيزتى أن تشاهدى بنفسك فالكلام يقلل من بشاعة الحدث، والواقع الذى ستشاهدينه هناك أقوى من أى خيال.. الذى حدث فى ملجأ العامرية عار على العالم العربى كله.. وعار على العراق أيضا أن يقلل هو أو الآخرون من بشاعة الحدث بتصوير باهت فى الوسائل الإعلامية.. استحالة أن يتم عرض قضية إنسانية على هذا المستوى الإعلامى مهما كان العائد من تعاطف الشعوب معها عليهم، فقط أن يضعوا القارئ فى مواجهة مع من ارتكب هذه الجريمة البشعة فى حق الإنسانية جمعاء.

الساعة الآن تشير إلى الواحدة صباحا.. على المدى البعيد ألمح أنوار بغداد تتلألأ وسط الظلام لتعلن أنه مازال هناك شعب يعيش ويتنفس.. نقترب أكثر من «دار السلام»، ليل بغداد يفتح ذراعيه لاستقبال ضوء النهار.. وخضرة أوراق النخيل الذى يطاول فى قامته المبانى العالية يرفض أن يستسلم لرياح فبراير العاتية ويلف المدينة كحارس أمين.

أمام فندق الرشيد مقر إقامة الوفد الشعبى المصرى.. توقف بنا الأتوبيس.. المسئولون العراقيون فى انتظارنا.. فى عيونهم فرحة تمتزج بالعتاب.. يعلو صوت: أخيرا وجوه غير وجوه الخواجات وأعضاء لجان التفتيش.. مرحبا يا أشقاء !

.. فى المدخل الرئيسى للفندق كانت صورة الرئيس الأمريكى السابق چورج بوش بوجهه المقطب، والمصنوعة من قطع الفسيفساء بألوانها الرمادية والزرقاء قد أخذت مساحة كبيرة واستقرت فوق أرضية المدخل لتكون



صورة بوش .. التي صنعتها الفنانة ليلى العطار بمدخل فندق الرشيد .. فراحت ضحيتها !

«مداسا» لكل من يدخل الفندق ومن بينهم الزائرون الأمريكان.. وبينما أنا أتجول بعينى بحثا عن توقيع لاسم الفنان الذى صنع هذه الصورة من قطع الفسيفساء بكل هذه التفاصيل الدقيقة وكل هذه الحرفية العالية.. سمعت أحد رجال الأمن يقول لأعضاء الوفد: «ليلى العطار» دفعت حياتها ثمنا لهذه اللوحة !

صرخت من أعماقى : نعم «ليلى العطار».. هذه هى الصورة التى أغضبت الأمريكان وزعيمهم «بوش» فأقسم أن يمزق جسد من رسمتها كقطع الفسيفساء التى اصطفتها ليلى لترسم صورة للوحش الذى أمر بقتل الأطفال والشيوخ والنساء !!



الفنانة ليلى العطار راحت ضحية صورة بوش

آه يا ليلى يا صديقتى.. أنا لا أصدق إننى هنا فى بغداد دون أن أراك فيها.. جميلة رقيقة تأسرين بجمالك وخلقك النبيل كل القلوب.. نعم مازلت أذكر هذا اليوم، أول مرة رأيت فيها الفنانة ليلى العطار كان تقريبا فى خريف ١٩٨٨ بمناسبة مهرجان المربد الشعرى ببغداد.. وقتها كانت ليلى تعمل مديرا لمركز صدام

للفنون ووجهت الدعوة لضيوف المهرجان لزيارة المركز.. وهناك رأيت الفنان «نصير شمة» الذى كان لم يزل فنانا واعدا يعزف مقطوعة أسماها «رحيل القمر» ألفها بعد مقتل أخته.. وكانت دموع ليلى تتساقط من عينيها الخضراوين اللتين خطتهما بالأسود الكاحل فشكلا مع وجهها الأبيض الجميل جمالا وإشراقا غير عاديين.. بعد الحفل ذهبنا ـ ليلى وزوجها وأنا ـ إلى منزل الكاتب العراقى «كامل الشرقى» فى دعوة على العشاء.. كانت الجلسة تضم كثيرين من الفنانين والشعراء من كل الدول العربية بما فيها الكويت.. وامتد الحديث بنا حول الفن والثقافة والشعر حتى الساعات الأولى من الصباح.. جميعا رقصنا وغنينا وضحكنا بما فينا ليلى التى بدت يومها فى زيها الأسود كلوحة فنية لامرأة جميلة اقتلعت لتوها من جدارية آشورية قديمة.

من الحياة اقتلعوا ليلى العطار.. لم تكن فى بيتها حينما أسقط الأمريكان عليه صاروخهم فطاردوها بالصاروخ الثانى فى بيت أختها، وهناك رقدت ليلى تحت الأنقاض فى سلام. دفعت روحها ثمنا غاليا لرسمها صورة بوش التى تداس هناك بالأقدام فى مدخل فندق الرشيد.

أكثر من ١٥ ساعة من السفر المتواصل بالأتوبيس من دمشق وحتى وصولنا إلى العاصمة العراقية بغداد كانت كفيلة بأن تجعلنا نحن أعضاء الوفد المصرى نصعد إلى غرفنا للنام كالموتى، لكن الجلسة فى مطعم فندق الرشيد امتدت بنا حتى إشراقة شمس اليوم التالى، الأطباء يعدون برنامجهم لزيارة المستشفيات فى الصباح بعد أن نذهب أولا للقاء د. أوميد مدحت مبارك وزير الصحة لتسليم شاحنة الدواء المصرية والاطلاع على الحالة الصحية لفئات الشعب العراقى، وبعدها نقوم بزيارة «ملجأ العامرية»!

العامرية

●●● فليأتوا - إني في قبري
من يدري أني..؟ من يدري!؟

■ كانت الساعة تقترب من الرابعة مساء عندما أخذت مقعدى بجانب «جلال» سائق السيارة الخاصة بالوفود لينطلق بى إلى ملجأ العامرية.. لا أعرف لماذاجلست بجانب «جلال» هل كنت خائفة، هل كنت أحتاج لأحد فى رحلتى رغم أننى رفضت أن أذهب مع أعضاء الوفد فى الصباح؟ ياربى، هل خانتنى شجاعتى ولن أوفى بوعدى لأرواح العصافير التى سكنتنى فى القاهرة؟ لست أدرى ؟!

طوال الطريق من فندق «الرشيد» ـ مقر إقامة الوفد الشعبى المصرى ـ وحتى منطقة العامرية حيث الملجأ الذى وقعت فيه مذبحة أطفال العراق وأنا أحاول أن أتخيل ملامح الصورة التى يمكن أن يكون عليها مكان أزهقت فيه مئات الأرواح البريئة، كنت أحاول أن استدعى الصورة التى وصفتها «وفاء المصرى» صديقتى فى الرحلة والتى سبقتنى لزيارة الملجأ ضمن أعضاء الوفد الشعبى فى الصباح.. لقد عادت وفاء من الملجأ حزينة، حتى نبرات صوتها الهادئة كانت متهدجة وهى تحاول أن تلملم ما تبقى من قواها لتحكى لى عما رأته فى ملجأ العامرية.. كنت أتعجب من كلمات «وفاء» الساخنة وتصويرها الحى لأحداث جريمة وقعت منذ سنوات ولم تبرد دماء ضحاياها حتى الآن.

فجأة جاءنى صوت «جلال» ليضع حدا لخيالى وليضعنى أمام الواقع

مجسداً وهو يشير إلى أحد الأبنية قائلا: ها هو ملجأ العامرية.. أنا لم أدخله منذ سنوات ولن أدخله، سأسلمك فقط «أم غيداء» وهى سوف تتولى أمرك !

لم أسأله من هى «أم غيداء».. فقد حكت لى عنها وفاء صديقة رحلتى.. ولكننى رأيت يدى تقبض على إحدى يديه الضخمتين بينما أخذت أتوسل إليه كطفلة ضلت الطريق: أرجوك لا تتركنى وحدى.. تعالى معى إلى الداخل !

نظر إلىَّ جلال نظرة كلها شفقة وقال بعد تردد أحسست معه وكأنه يستسلم لقدر سيلقى فيه حتفه: ماشى يا أستاذة..

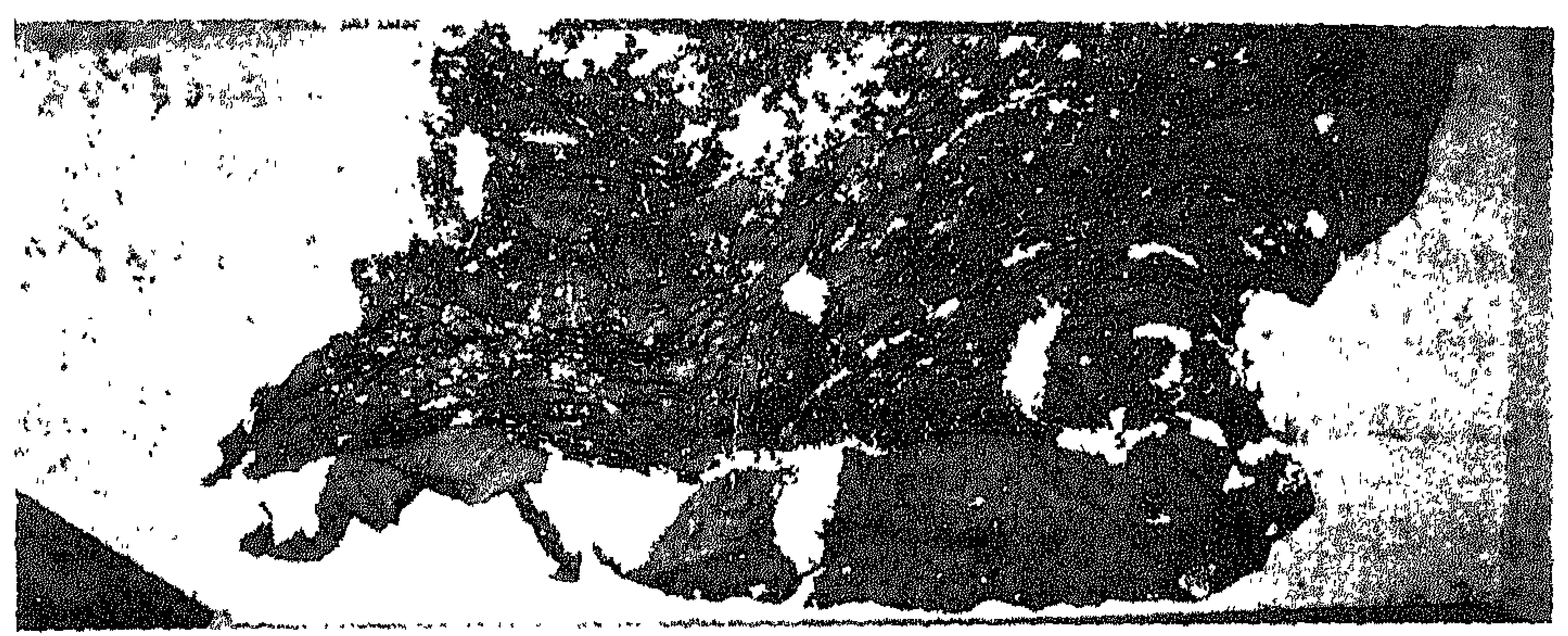
أغلقت باب السيارة خلفى وعبرت مع السائق بوابة حديدية وعلى يسار البوابة لمحت سيارة تحمل أرقاما «أردنية» بينما على الجانب الأيمن كان هناك كشك خشبى صغير عرفت بعد ذلك من «جلال» أن الدولة قد خصصته «لأم غيداء» المسئولة عن الملجأ والتى تقوم باصطحاب الزائرين إلى الداخل لتشرح لهم كيف دخل الصاروخ من فتحة تهوية الملجأ ليطيح بألف وخمسمائة روح، من ضمنهم ثلاثة أطفال هم فلذات كبدها.

أمام باب آخر فتح عن مكان مظلم.. توقفت قدماى ولم أعد أقوى على المسير بينما أخذ جلال يصرخ فى وجهى طالبا منى أن أتقدم للداخل وإلا سيتركنى ويرحل! كان جلال يتوعدنى ويأمرنى كأنه قائد مركبتى والمتحكم فى أمرى.. وكما نصحنى وضعت يدى على فمى ودلفت من البوابة.. وإذا بى داخل مقبرة أسمنتية يلفها الظلام والصمت فيماعدا صدى صوت «أم غيداء» القوى الذى يأتى من أحد أروقة الملجأ وهي تشرح لأعضاء الوفد الأردنى كيف كانت مؤامرة ومذبحة ملجأ العامرية !

كان لون المقبرة رماديا والرؤية تبدو مستحيلة مع اللحظات الأولى من دخولى.. وشيئا فشيئا.. أخذت الأشياء تتضح أمامى بقايا شظايا الصاروخ الأمريكى منتشرة هنا وهناك فوق أرضية الدور الأول للملجأ.. ومن فوق رأسى كان السقف قد كشف عن قطع حديدية كبيرة كادت تسقط فوق

رأسى لتحطمه وتفرغه من فزع أخذ يسيطر عليه.. بينما يجاور هذه القطع الحديدية خصلات من شعر آدمى أخذت تتدلى من سقف الملجأ، أما جدار الملجأ فلم يكن سوى غلاف أخذ مادته من جلود آدمية محترقة تلتوى كورق حائط قديم رفض أن يستقر فوق الجدران.. ورأيتنى أقترب منه أكثر وأكثر.. أدقق فيه النظر أحاول أن أتلمسه فإذا بجلال السائق يجذبنى من ذراعى بقوة وهو يصرخ: «هل جننت إياك أن تلمسى أى شئ هنا» !

مازلت مأخوذة.. مأخوذة بما يدور حولى فى ملجأ العامرية، صحيح لم يكن هناك شئ أسمعه أو مشهد درامى أراه.. ولكن كانت هناك حقيقة حية مؤلمة تجسدها بقايا وأشلاء بشر انتشرت هنا وهناك، هى أقوى من أى فعل درامى يمكن أن يصور مذبحة بشرية..



كورق الحائط الذى رفض أن يستقر فوق الجدران .. أصبحت جلود الضحايا بعرض حائط ملجأ العامرية

فى اللحظات التى ذهب فيها ضعفى البشرى أمام هذا الفعل المأسوى الذى تجسده هنا صور لعائلات كاملة علقت بطول جدران الملجأ استشهد أفرادها جميعها بفعل انفجار الصاروخ الأمريكى.. في هذه اللحظات لا أدرى لماذا عاد بى الزمن ثلاثين عاما إلى الوراء.. حينما كنت طفلة صغيرة دون السادسة أدرس بالصف الأول فى مدرسة «التنيس» الابتدائية «ببورسعيد»، وكنت فرحة بمريلتى البيج وضفيرتى الصغيرة المجدولة بالشريط الأحمر وحقيبتى القماشية التى صنعتها عمتى لى ووضعت أمى لى فيها كراسة وقلم رصاصة وساندوتش حلاوة طحينية لتصطحبنى أختى الكبيرة إلى المدرسة.

كانت فرحتى بالأيام الأولى لى فى المدرسة كبيرة.. ولكنهم أجهضوها وحرمونى منها حينما أعلنت مديرة المدرسة حالة الطوارئ وطلبت منا أن نترك جميعا فصولنا ودروسنا ونتوجه فورا إلى «حوش» المدرسة لنغادرها استعدادا لتهجيرنا خارج مدينة بورسعيد، وكان ذلك عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧.

كان صوت «البوق» يلف المدينة يعلن عن قدوم عربات نقل كبيرة لنقل المواطنين إلى بلدان وقرى أخرى خارج بورسعيد.

كان الصوت يخرج من البوق أجش.. قاسٍ وهو يعلن أن بورسعيد تتعرض لغارات جوية من إسرائيل !.

يومها فقط عرفت معنى إسرائيل.. وقبلها عرفت معنى العدوان الثلاثى من أبى وأمى وأخى الكبير «جمال» الذى سمته أمى باسم الزعيم جمال عبدالناصر ..حينما كان يصطحبنى من يدى لنمشى فى شوارع بورسعيد فيما أنا أسأله عن معنى العبارات المكتوبة فوق جدران المنازل والمدارس والمصانع فيقرأ لى: «يسقط الاستعمار.. نموت نموت ويحيا الوطن.. تسقط إسرائيل وتحيا مصر.. بالروح بالدم نفديك يا جمال و......»

عرفت أيضا معنى كلمة مخبأ أو ملجأ عندما كانت صفارة الإنذار تنطلق لتخترق سكون مدينتى الهادئة فتسرع أمى لتوقظنا من نومنا نحن أطفالها الخمسة الصغار فننطلق أمامها كالسرب إلى حيث المخبأ حتى تأتينا صفارة الأمان.

فى ملجأ العامرية.. لم تأتيهم صفارة الإنذار، بل جاءهم صاروخ ليخترق جدار الملجأ مباشرة فلم يعطهم فرصة حتى للهروب من ملجأ الأمان.

فى ملجأ العامرية.. كان اللقاء حميما بينى وبين أطفال العامرية.. أحسست بأرواح الأطفال التى سكنتنى بالقاهرة وطالبتنى بالرحيل بها إلى ملجأ العامرية.. أحسستها هنا تغادرنى لتعود إلى أجسادها من جديد.. نعم رأيت أجساد الأطفال التى مزقها الصاروخ يعاد بعثها من جديد من بقايا الجلود



في ملجأ العامرية .. الموت مر من هنا

الآدمية المنشرة هنا وهناك فوق جدران الملجأ .. رأيت آثار الدماء المتجمدة فوق كل شبر بالملجأ، تعود لتسبح من جديد فى عروق الأيادى الصغيرة المبتورة والتى مازال سقف الملجأ يحمل ملامحها.. فها هى طفلة يطيح بها انفجار الصاروخ إلى أعلى.. تحاول أن تتشبث بسقف الملجأ.. فينصهر جسدها وتذوب عظامها الهشة الضعيفة وتسقط فى جحيم نيران الصاروخ ويبقى رسم كفها الصغير فوق الجدران شاهد عيان على مجزرة الأطفال في ملجأ العامرية.

عاد أطفال العامرية يلعبون أمامى ويمرحون.. وداخل أروقة الملجأ يصطحبونى فلا أسمع أو أرى مرافقى جلال.. لا أدرى كم مر من الوقت وأنا بصحبتهم يقصون علىَّ حكاية ملجأ العامرية.. وأمام كل لوحة لأسماء وصور إحدى العائلات التى قتلت جميعها فى الملجأ.. كنا نتوقف.

لم أفق من حالتى ولم ينقطع حوارى مع أطفالى إلا عندما شعرت بيد ثقيلة فوق كتفى.. تربت علىَّ فى حنان.. وجاءنى صوت جلال يقول: كفى.. كفاك بكاء.. ألم أقل لك لاداعى لأن تأتى إلى ملجأ العامرية؟ وعرفت وقتها فقط إننى كنت أبكى وأنا أستحضر روح أطفالى.. ولكننى لم أكن وحدى التي تبكى.. كان جلال هو الآخر ينتحب ويجهش فى البكاء ويقول بصوت مكتوم:

والله حرام - حرام، لن أسمع كلامك مرة أخرى وأتركك وحدك فى أى مكان بالملجأ !! ثم اصطحبنى من يدى، وأمام صورة كبيرة لصبية صغيرة تحيطها الورود وصور كثيرة لأطفال آخرين توقفنا. قال لى جلال وهو يشير إلى صورة الصبية: هذه هى «غيداء» ضحية الصاروخ الأمريكى والتى وهبت أمها نفسها لخدمة الملجأ منذ أن سكنه الصاروخ ولم تغادره حتى الآن.. مسكينة إنها تظن أن أطفالها الثلاثة الذين مزقهم الصاروخ لم يموتوا وأنهم يسكنون هنا !.

كان جلال يتكلم ويتكلم وأنا لا أسمع منه شيئا.. أخذتنى عيون «غيداء» ابنة السادسة عشرة.. عيون غيداء حزينة وهى تنظر إلى فستان أبيض يجاور صورتها.. وعلى بعد خطوة منى كان صوت «أم غيداء» يأتينى وهى تحكى حكاية غيداء لأعضاء الوفد الأردنى :



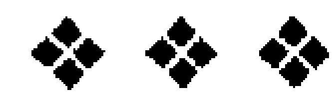
الصبية غيداء .. لم يمهلها أحد ليوم عرسها



ام غيداء .. والقضية

«قبل ساعتين من ضرب الأمريكان لملجأ العامرية.. طلبت منى غيداء أن أحتضنها.. ذكرتنى وهى تودعنى على باب الملجأ ألا أنسى أن أحضر معى «بدلة» عيد ميلادى الجديدة، فربما احتفلت به هنا غدا مع أخوتها الصغار وأصحابها، خاصة والكهرباء كانت قد قطعت عن كل

بيوت الحى. وغادرت الملجأ وذهبت إلى منزل عائلتى على مقربة من الملجأ حيث أقيم أنا بحى «السيدية»، وهناك وبينما أنا أشكو لأمى عدم وجود مسحوق أو كهرباء لكى أغسل ملابس أطفالى سمعنا صوت انفجار يهز المكان.. صوت انخلعت معه شبابيك البيت وأبوابه، واهتزت له الجدران وسقط كل ما علق عليها.. كانت هناك صورة غيداء ابنتى وشقيقها.. سقطت الصورة من فوق الجدران وانخلع قلبى من صدرى بينما كان أخى يصرخ: ضربوا ملجأ العامرية.. وجريت.. جريت فى شوارع الحى.. أصرخ من أعماقى.. غيداء.. غيداء.. ولكن أين غيداء.. قتلوها.. قتلوا حلمها فى أن تدخل كلية الفنون الجميلة.. نعم غيداء ابنتى كانت تهوى الرسم.. رسمت صورة لخطيبها النقيب.. كانت تضع الخط بجانب الآخر وتعد الأيام حتى يأتى خطيبها من جبهة القتال ويتم الزفاف لكن «غيداء» راحت ولم يبق منها إلا فستان الزفاف !!



وإلى الدور الأرضي من الملجأ ! اصطحبنى جلال.. لم يكن هناك أثر لأى دماء.. كان هناك فقط جلود آدمية حرقت واستقرت هنا وهناك بامتداد الحائط بعد أن لفظتها الرؤوس المتفجرة.. ولاحظت أن هناك خطا يقسم الجدران من حولنا إلى نصفين.. كان النصف الأسفل لونه مختلفا.. وعرفت أنه حينما سقط الصاروخ من فتحة التهوية وسقط فى الدور الأرضى - وهو الدور الذى خصص لخدمة رواد الملجأ - انفجرت معه غلايات المياه والمواسير وأجساد مئات البشر التى أخذت تسبح فى بحر من مياه يزيد ارتفاعها عن المتر ونصف المتر وتتعدى درجة حرارتها ألف درجة مئوية. ومن حولى كان الحائط ملئ بالخربشات إلى أقصى ارتفاع الذراع، رسوم وأسماء باهتة ورائحة الدم لم تطردها رائحة البخور والمطهرات.. وأمامى وعلى امتداد بصرى كانت هناك صورة محفورة على الحائط عبارة عن هيكل عظمى لامرأة تحتضن طفلا رضيعا، نعم لم تكن هناك معالم واضحة لجسد امرأة أو طفل.. ولكن كانت هناك صورة تشبه صورة الأشعة الضوئية.. صورة طبيعية لم تتدخل فيها فرشاة فنان.. صورة لأم تحتضن

رضيعها بينما يفاجأها الصاروخ فينصهر جسدها وجسد الرضيع.. وتبقى العظام ملتصقة بالجدران لتتهاوى بعد ذلك تاركة خلفها هذه الصورة الحية لشبح الموت.. واغمضت عينى لأريحهما ولأتأكد من أن ما أراه حقيقة وليس خيالا، وعندما فتحتهما كانت كل الأحداث قد تحولت أمامى إلى صور فوق الحائط، فلم يكن هناك من يملك رؤية ذلك غيرى !



وما زالت رائحة الموت تفوح من الفتحة التي مر منها الصاروخ الأمريكي

قاربت الساعة الخامسة مساء وأنا مازلت أتجول بين أروقة ملجأ العامرية.. كل شئ هنا من الدم وله رائحة الدم.. صور الضحايا المعلقة بامتداد حائط الملجأ للأطفال والشيوخ والنساء كانت تكلمنى ، كانت أصواتهم تخرج من حناجر مقطوعة، وتنطلق من شفاة لاتنطق وكأنها تأتى من عمق بئر الحزن الكبير.. سألت جلال : لماذا كل صور الضحايا من النساء والاطفال والشيوخ أين كان الرجال إذن؟ .. تعجب جلال من سؤالى الذى بدأ غبيا وقال : كانوا طبعا هناك مع خطيب «غيداء» على جبهة القتال شأنهم شأن كل عراقى فالحرب ياعزيزتى لم تستثن رجل !!!

وفى الدور العلوى للملجأ كانت شمس شتاء فبراير التى أوشكت على المغيب مازالت ترمى بخيوط أشعتها فوق أرضية الملجأ عبر فتحة تجاوز قطرها خمسة أمتار ولم يكن من الصعب أن اتعرف عليها .. إنها الفتحة التى عبر منها الموت إلى الضحايا .. إنها دائرة الموت التى صنعها الصاروخ الامريكى عندما سقط داخل ملجأ العامرية ليخطف مئات الأرواح البريئة.

سماء بغداد بلونها القرمزى ساعة غروب الشمس تستولى على عينىّ وأنا مازلت هنا واقفة .. لاأدرى كم مر من الوقت وأنا أرقبهامن تحت الفتحة التى أحدثها الصاروخ فى سقف الملجأ .. أعاتبها :

أنت أيتها السماء البعيدة..

هل شاركت فى هذه المذبحة حين استباحوك ، فى ليل مشئوم سبحت فيه طائراتهم المحملة بصواريخ الموت وسط سحبك ؟

هل شاهدت أطفال العامرية وهم يتحولون إلى وقود لنيران الصاروخ الامريكى ؟

هل شاهدت أم «غيداء» المسكينة وهى تصرخ وتبكى أبناءها الثلاثة بعد أن شوتهم ألسنة النيران ؟

وهل ذهبت خيوط ألسنة النيران إليك فتشبعت رئتاك بأبخرة الموت المباغت ؟

كان ملجأ العامرية واحداً ضمن مجموعة من الملاجئ أقامتها العراق بالتعاون مع خبراء من «السويد» أثناء حربها الأولى مع ايران ليحتمى فيها الأهالى ـ وهذه الملاجئ وكما هو معروف دوليا محظور ضربها عسكريا باعتبارها مكانا يحتمى فيه المدنيون من الرجال والنساء والشيوخ والأطفال أثناء الغارات من القصف والدمار ـ ولكن المخابرات الامريكية فى رحلتها لقتل الروح المعنوية للشعب العراقى استطاعت الوصول إلى مجموعة الخرائط الوصفية لملجأ العامرية، بمعاونة من الجانب السويدى الذى قام بتصميم مشروع الملاجئ، واستطاعت من خلال هذه الخرائط أن تكشف موطن الضعف بمبنى الملجأ المنكوب حتى تتمكن من ضربه وقتل كل انسان تسول له نفسه أن يحتمى به، ولم تكن نقطة الضعف هذه سوى فتحة التهوية أعلى الملجأ .. وبالفعل قامت امريكا بتصميم صاروخين لإسقاطهما من هذه الفتحة وانجاز هذه المهمة اللاآدمية، والتى خرقت بها كل القوانين والأعراف والاتفاقات الدولية، وخاصة اتفاقيات جنيف الاربع لعام ١٩٤٩

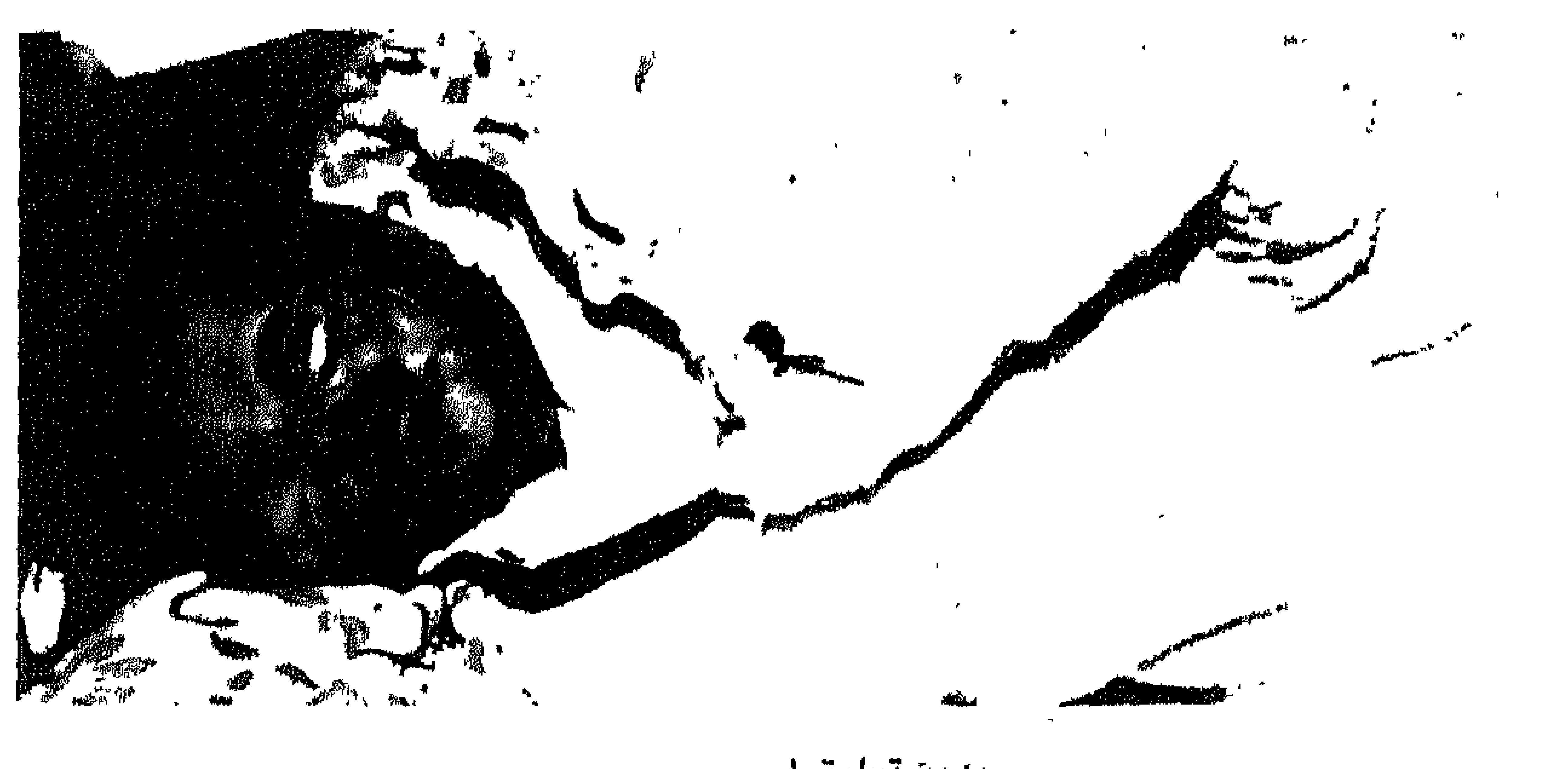
وبروتوكوليها الإضافيين لعام ١٩٧٧ فى موادها (٦، ٦٢، ٦٥)، والتى ألزمت أطراف النزاع بحماية خاصة لأجهزة الدفاع المدنى وأفرادها (لجنة خاصة ص ٦٥، ص ١٦) .. كما أن هذا الفعل الوحشى كان مخالفة واضحة وصريحة لاتفاقية حقوق الطفل التى تم اقرارها فى مؤتمر «قمة الطفولة» الذى عقد فى يوليو ١٩٩٠ والذى كرس لمناقشة بند واحد هو «الاطفال»، وهى الاتفاقية التى تم تبنيها من قبل زعماء العالم والاعلان عن الالتزام بحقوق الطفل ونمائه فى التسعينيات ، كذلك ضربت أمريكا بهذه الغارة الشائنة عرض الحائط بالمادة رقم «٦» من اتفاقية حقوق الطفل، والتى تنص على أن « لكل طفل حقاً أصيلا فى الحياة» !

الناس فى رحلتهم اليومية إلى ملجأ العامرية طالبين الاحتماء من الغارات والقصف الجوى لم يكن يخطر ببال أى منهم ولو للحظة أن هذا المكان يمكن أن يقصف .. كانوا يرون فيه الملاذ الآمن من الغارات والصواريخ .. فمن هذا الانسان الذى يمكن أن يخلط الاوراق لينتقم كل هذا الانتقام الخسيس من شعب مدنى لاحول له ولاقوة ؟ من الذى يفكر فى قتل الطفولة ووأد فرحة الأمومة وفناء عائلات بأكملها كان من حقها ان تعيش وتسعد بالدنيا .. أليست الحياة حق مكفول للجميع ؟! .

الصاروخ الأول سقط من هنا ، من فتحة التهوية، تاركا خلفه دائرة الموت التى تعلو رأسى الآن ، كان الانفجار قويا عنيفا زلزل الأرض زلزالا، وحوّل الأجساد البشرية فى لحظة إلى أشلاء وبقايا بشر بينما استقر هو فوق أرضية الملجأ ليتبعه صاروخ أخر يزيد دائرة الموت اتساعا .

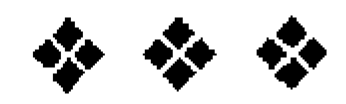
«كلاب.. وحوش.. لم ينج بيت فى بغداد من ضحاياهم».. هكذا كانت كلمات السائق جلال تأتينى فتخترق بمرارتها عالم السكون والصمت وبئر الحزن الذى يضمنا سويا تحت الفتحة التى خلفها الصاروخ الامريكى .. كان صوته مكتوما أشبه بأنات انسان ذبح لتوه .. تتساقط الدموع من عينى جلال فأراها تحت قدمى فوق أرضية الملجأ وقد تحولت الى بحيرات صغيرة يغازلها بقايا شعاع شمس أوشكت على الغروب عن عالمنا .. أخذت البحيرات الصغيرة تزداد إتساعا لتتشابك حتى صارت بحيرة واحدة ..

وفوق صفحة البحيرة استقرت كل عيون الأطفال المنتشرة صورهم على امتداد حائط الملجأ كانت عيناى مفتوحتان عن آخرهما ولكنى لم أر وجوها .. فقط رأيت عيونا بريئة تناديني .. ومن اعماقى صرخت : أيتها العيون لاتغرقى.. عودى إلى وجوهك امنة شاهدة على من فعلوها .. فجأة تاهت عن عينى البحيرات واختفت العيون الصغيرة ، فتلاشت البحيرة.. وعادت الحياة تدب من جديد فى صور وجوه الضحايا المعلقة حولى فوق الجدران .. وبدأت أسمع أصوات استغاثة قادمة من زمن بعيد.. ولكن صوت جلال اخترقها وهو يقول : «لم يستطع أهالى المنطقة أن يتعرفوا على أقاربهم من الضحايا .. كانت الجثث محترقة تماما ومشوهة، أما جثث الأطفال فكانت بقايا هياكل عظمية هشة ومحترقة .. لقد مرت أيام كثيرة وهم ينتشلون أشلاء البشر من ملجأ العامرية، الناس كانت تبحث عن أى شئ لتتعرف من خلاله على ذويهم .. ولكن عبثا .. الكل تلاشى والأجساد انصهرت .. ولم يعد هناك غير كتل من اللحم المشوه والعظام المحترقة» !!.



بدون تعليق !

كانت الصورة التى يرسمها جلال لموكب الموت وهو يمر أمام ملجأ العامرية بعد احتراقه بالصاروخ الامريكى مخيفة.. اختل معها توازنى وكدت أسقط على الأرض لولا يد جلال التى انتشلتنى بقوة، ليسحبنى إلى الخارج مصمما أن تنتهى رحلتى داخل الملجأ فوراً !!



وداخل حجرة خشبية صغيرة وضعت على مقربة من البوابة الكبيرة التى دخلنا منها إلى العامرية جلست إلى «أم غيداء»، بينما أتخذت هى مكانها خلف مكتب خشبى متواضع وضعت عليه دفترا كبيرا كتب عليه « دفتر الزيارات» .. وجه «أم غيداء» خمرى نحيل، عيونها غائرة داخل عظام وجهها ومفتوحتان عن أخرهما كعينى قتيل ، شعرها أسود فاحم كلون ثوبها الذى يغطى جسدا نحيلا لامرأة فى الاربعينات من عمرها غادرها الشباب مبكرا.

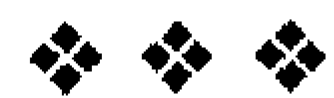
منذ سمعت صدى صوت «أم غيداء» وهى تشرح للوفد «الاردنى» كيف كانت مذبحة ملجأ العامرية، عقدت العزم على ألا ترافقنى فى رحلتى داخل الملجأ .. كان صوتها القوى يأتينى كصوت جهاز تسجيل يردد الكلمات دون ان يحس بها .. كانت أم غيداء تتكلم بسرعة وحده، حتى أنها فى حوارها مع إحدى المحطات العربية الفضائية .. كانت تردد نفس الكلمات وتتوقف نفس الوقفات وبنفس إيقاع الكلمات.. ووقتها فقط عرفت أن أم غيداء انتهكت انسانيا على يد الإعلام .. «أم غيداء» فرغت من محتواها .. ماذا فعلوا بـ«أم غيداء» .. ماذا فعلوا بقضيتهم فأم غيداء هى القضية .. والقضية هى «أم غيداء».

قلت لأم غيداء : أريد أن احادثك كامرأة وأم فقدت أبناءها الثلاثة .. لاأريدك مرشدة لى داخل الملجأ ! وعن وجهى هربت أم غيداء بوجهها بعيدا .. وفى اللحظة التى عادت فيها لتنظر إلى .. رأيت حزن العالم كله يطل من عينيها، وحينما بدأت تتكلم ، جاءنى صوتها متهدجا متوترا وهى تقول : الخونة باعوا للامريكان خرائط ملجأ العامرية .. قتلوا أطفالى .. مزقوهم قطعا .. ظللت أيام كثيرة وهم ينتشلون الضحايا من الملجأ عبثا احاول أن أجد شيئا بقى من أولادى، قطعة من فستان غيداء، لعبة ابنى الصغير، لكن الصاروخ لم يترك لى شيئا .. حتى بقايا أجساد أطفالى لم أستطع التعرف عليها، كانت كل أجساد الأطفال ممزقة قطعا ، ومحترقة عن أخرها .. وكانت الوجوه بدون معالم وليس بها عيون .. كل عيون الضحايا أنفجرت ولايزال حائط الملجأ يحمل الكثير من بقاياها ! فجأة أخذ صوت أم غيداء

يعلو ويعلو وهى تصرخ فى وجهى قائلة : أنا لاأصدق أن اطفالى رحلوا عنى .. أنا معهم هنا أسمعهم ينادون علىّ من داخل الملجأ .. ماما تعالى .. تعالى ! وتسقط دموع «أم غيداء» كالشلال .. ومن أعماقى رحت أصرخ صرخة مكتومة: أم غيداء أتركى هذا المكان .. إرحلى ، اطفالك قتلوا ولن يعودوا، لا تدعيهم ينتهكون حزنك وقضيتك ..! إرحلى ياأم غيداء ..

لم تسمع أم غيداء صرختى المكتومة، ومن جديد أخذت تحكى : غيداء ابنتى كانت مثلها مثل كل البنات، تذهب قبل السادسة مساء إلى الملجأ لحجز مكان .. تحب غيداء أن ترقد بالدور العلوى ، ياحبيبتى يابنتى مكانك قريب جدا من فتحة التهوية التى دخل منها الصاروخ، أكيد مزقها .. وأكيد خصلات الشعر الملتصقة بسقف الملجأ هى خصلات شعر غيداء !! ألم أقل لك أن اولادى مازالوا داخل الملجأ !! .

تذهب «أم غيداء» بعيونها فى اتجاه مبنى الملجأ المقابل لغرفتها وتقول وكأنها تحادث نفسها : يقولون انهم ضربوا الملجأ بالصاروخ اعتقادا منهم انه موقع عسكرى.. طيب ليش ما ضربوه فى الصباح؟ جميع الاهالى تغادر الملجأ فى الثامنة صباحا.. ليش ضربوه فى الثانية صباحا بعد ان أطمئنوا انه أكتظ بمئات الأطفال والنساء!! صحيح أننا كنا بنشوف الطائرات الامريكية تكتشف المكان وتصوره قبل ثلاثة أيام من الضرب .. ،لكن لم نتصور ابداً أنهم سيضربون الأهالى والأرواح البريئة .. قالوا انهم ضربوه ظناً منهم بأن الرئيس «صدام حسين» كان مختبئا به !! وهل كان الرئيس أيضا مختبئا فى معمل حليب الأطفال !! عادت «أم غيداء» تصرخ مرة أخرى فى وجهى قائلة : ياعزيزتى ماحدث فى ملجأ العامرية جريمة وقتل للأرواح البريئة مع سبق الاصرار والترصد .. والدولة التى تتباكى على عدم التنفيذ الأمين لبنود اتفاقية حقوق الانسان التى أقرتها الجمعية العامة للأمم المتحدة فى ١٩٨٩، هى نفس الدولة التى لم ترحم أطفال العامرية وإبادتهم بالصاروخ !!



أخـذت أقلب فى دفـتـر الزيارات الذى أعطتنى اياه أم غـيـداء لأسـجل فيـه كلمة .. صفحات وصفحـات تفيض بمشاعر الحزن والألم سطرتها أقلام كل من شهـد آثار الدمار والموت فى هذا المكان، كلمات تشـجب وتندد هذا الفعل اللانسانى وتتوعد بالانتقـام .. وحاولت أن أمسك بالقلم لأسجل مأأشعر به .. ولكننى أكتشـفت أن ما أحسه أقوى وأعمق من كل الكلمات .. وفضلت أن ارحل عن هذا المكان .. فـالآن فـقـط عـرفت لماذا رفض صـديقى الفنان العـراقى « عـزيز خيون» أن يـرافقنى فى رحلتى إلى ملـجـأ العـامـرية قـائلا : اننى يـاعـزيزتـى أقـاوم الذهـاب إلى مسـرح هذه الجـريمة البشـعة لاننى لن اتحمل هـذا الـواقـع الأقوى من أى فعل درامى !!

إلى حيث تقف السيـارة خارج بوابة الملجـأ، كنت أسابق الريح، أجـرى وخلفى كل أحزان العـالم.. «أم غـيداء» وفى العـامرية تركت من مـاتوا، وتركت أيضا الذين لايزالـون علـى قـيـد الحـيــاة .. فـهـم أيضـــاً يموتـون كل يوم بدون صـواريخ..يموتون بفعل الحزن.. والجوع.. والحصار !!

مـدن الأحزان

●●● كــــان طفــلاً بــات يهـــــذي قبـــل أن ينام بأن أمـه ـ التي أفـاق منذ عـام فلم يجـدها، ثم حين لح في الســؤال قــالوا له: «بعـد غـد تعود......» ـ لابد أن تعود.

■ فى بهو فندق الرشيد .. كان يجلس صديقى المخرج عزيز خيون» وزوجته الفنانة عواطف نعيم» فى انتظارى حسب موعد سابق .. نظر إلى عزيز نظرة كلها شفقة وسألنى: مابك ياعزيزتى؟.. قلت إننى قادمة لتوى من ملجأ العامرية، وفى رأسى صداع يكاد يقتلنى، ولكن عواطف قالت :إن وجهى مخطوفاً وأنه أصفر مثل الليمونة وأن علىَّ أن أصعد إلى غرفتى كى أستريح ثم يأتيانى فى وقت لاحق !!

كانت الساعة تقترب من الثانية صباحا عندما إستسلمت للنوم، وفى منامى رأيت حلماً مفزعاً عجيباً .. رأيت إبنى «حاتم» يقترب منى، كان وجهه مستديرا وكبيرا على عكس تكوينه الحقيقى .. وكان شعره ناعما وكثيفا يتدلى على جبينه فيحجب عنى رؤية عينيه، وكانت يد حقيبته المدرسية الكبيرة تلتف حول رقبته بينما يختبىء جسده الصغير بكامله خلف جسم الحقيبة التى تتدلى من رقبته وترتعش فى صمت على دقات قلبه الفزع .. وعندما إقترب منى أزحت خصلات شعره من فوق جبينه لألمح نظره غريبة فى عينيه، كانت نظرة لإنسان ميت .. نظرة أنخلع معها قلبى من مكانه فرحت أنزع يد الحقيبة من رقبته لأضمه إلى صدرى بسرعة.. فإذا بطلقات الرصاص تخترق صدره فيبدو أمامى كالمصفاة .. وصرخت بأعلى صوتى .. إبنى .. وعلى صوت صرختى استيقظت يتملكنى الرعب والفزع !

كانت الغرفة مظلمة تماما فيما عدا بصيص من ضوء يأتينى من خلف زجاج باب «الحمام» المغلق، ومددت يدى لأضغط على زر المصباح الذى يجاورنى، لكننى بدلا من أن أمسك الزر، أمسكت بصورة ابنى حاتم التى كانت ترقد بجانبى فى سلام ..

فى اللحظات التى أختليت فيها بصورة ابنى .. احتضنها .. أقبلها .. أبكى كما لم أبك من قبل، كانت هناك يد تطرق بقوة على باب حجرتى .. وبأعلى صوتى سألت : من ع الباب؟ .. وجاءنى صوتها مرتبكا خائفا مثل صوتى .. إنها «خلود الجمل» أصغر عضوة فى الوفد الشعبى المصرى .. وتعمل صحفية بالأهرام «أبدو» .. قالت خلود : إفتحى أنا .. خا .. ئـ .. فـ .. ـة

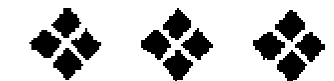
هرولت من فوق سريرى .. فتحت الباب لأجد خلود أمامى فى ملابس نومها ترتعش وكأنها مصابة بالحمى .. لم تنطق بكلمة واحدة .. فقط أخذت مكانها تحت البطانية بالسرير الذى يجاور سريري، بعدها نظرت إلى وجهى وسألتنى إذا كنت بالفعل أبكى! فقلت لها إن عينيَّ قد غفوتا لبضع لحظات .. وفى منامى رأيت إبنى حاتم مقتولا بالرصاص !

ضحكت خلود وقالت : إذا كان هذا هو الجو الذى تنامين فيه فلابد أن تحلمين بالحروب والكوارث والعفاريت وليس بمقتل ابنك فقط! وعندما سألتها عما تقصد أشارت إلى زجاج نافذة الغرفة الذى تركته مفتوحا عن آخره تحركه رياح شهر فبراير العاتية .. وقالت وهى تستعد لمغادرة غرفتى أنه من المستحيل أن تترك غرفتها المغلقة الهادئة لتنام معى فى مثل هذه الغرفة التى يلفها الرعب والكوابيس من كل جانب مهما كانت درجة خوفها من النوم وحدها فى غرفتها ! لكننى اصطحبت خلود من يدها إلى شباك الغرفة المفتوح ولأن حجرتى كانت فى الدور الخامس فقد طلبت من خلود أن تنظر إلى أسفل حيث الحديقة القريبة من مدخل الفندق .. وسألتها إذا كانت ترى «الحفرة» التى خلفها الصاروخ الأمريكى ؟

نظرت خلود إليَّ نظرة كلها خوف وسألتنى إذا كنت جننت بالفعل أو أصابتنى لوسة .. فالظلام يلف المكان وهى لاترى شيئا .. قلت لها إن أحد

العاملين بالفندق إصطحبنى اليوم إلى المكان الذى سقط فيه الصاروخ بحديقة الفندق وحطم الواجهة الزجاجية وراحت ضحية إنفجاره الفتاة البريئة التى كانت تعمل بمكتب الاستقبال !

إتسعت عينا خلود وصرخت فى وجهى قائلة : «يعنى فيه قتيلة بالفندق» .. ثم هرولت ناحية الباب وفتحته وجرت فى إتجاه حجرتها.. الهادئة !



بعد صراع من أجل أن تغمض جفونى مرة أخرى، قررت أن أبدأ يومى الجديد .. كنت على موعد مع «وفاء المصرى» والمخرج «حسام علي» - الذى جاء لتصوير فيلم عن أطفال العراق - لزيارة بعض الملاجىء فى بغداد .. وكانت وفاء قد أحضرت معها مجلات مصنوعة من القماش المطبوع بالرسومات الزاهية الجميلة لتوزعها على أطفال الملجأ، أما «حسام» فقد أحضرمعه كميات كبيرة من البطاطين بينما أحضرت أنا حليباً للأطفال.

وصل بنا «أبو ياسر» سائق سيارة الوفود إلى ملجأ لرعاية الصبية من سن السادسة يتبع وزارة الشئون والعمل العراقية .. وعندما علمت مديرة الملجأ إننا ضمن أعضاء وفد شعبى مصرى يزور العراق حاليا ويحمل بعض الهدايا للأطفال رحبت بنا واصطحبتنا إلى كل غرف الملجأ ..

عشرات الأطفال الصغار أخذوا يتطلعون إلينا .. كانت رؤوسهم حليقة وملابسهم متواضعة، ولاحظت أن هناك طفلا يقف بعيدا وحيدا ولاينضم إلى دائرة الأطفال الذين يلتفون حولنا .. سألت الطفل هل تعرف أمريكا ؟.. قال طبعا .. أمريكا هى إللى حاصرتنا، هى اللى منعت عن أطفال العراق الحليب! أمريكا ضربت ملجأ العامرية وقتلت أمى !.

وسألته : ولكن كيف قتلت أمريكا أمك ياصغيرى ؟ قال الصبى: كنت طفلا صغيرا، أمشى خلف أمى فى طريقنا إلى السوق لتشترى لنا طعاما .. وفجأة سقط صاروخ أمريكى على بعد أمتار منا .. فأصيبت أمى وسقطت على الأرض .. وماتت ومن يومها وأنا هنا فى الملجأ ..

- وأين كان أبوك ؟

- أبى كان على الجبهة بيحارب أمريكا .. وهو كمان مات هناك !

وجلست ومن حولى أطفال وصبية الملجأ .. سألتهم عن ملجأ العامرية، جميعا كانوا يعرفونه . يحفظون قصة الغدر والعدوان عن ظهر قلب ..

قال أحدهم وهو لايتعدى العاشرة من عمره : أنا «ياست» أمى وأخوتى الثلاثة ماتوا هناك فى الملجأ .. وأنا وحدى بقيت لأننى كنت وقتها عند أقاربى الذين أحضرونى بعد ذلك إلى الملجأ لأن عندهم أولاد كثيرون !! .

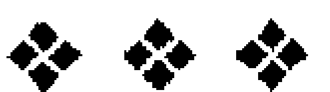
عندما اقتربت منه لأسأله عما يريد أن يصبح عليه عندما يكبر قال بسرعة : «أنا عايز أكون طيار علشان أسوق الطيارة وأضرب أمريكا بالصواريخ زى ماضربت أمى وأخوتى» .. وعندما قلت له ولكنك يمكن أن تموت! ابتسم قائلا : «وايش يعنى ياست» .. أبويا مات شهيد ..

لم يعد للموت رهبة فى عقول ومخيلة أطفال العراق، بل أن الدراسات أثبتت أن ٧٩٪ من أطفال العراق تظهر عليهم مظاهر الرغبة فى الانتقام من دول العدوان بسبب ماشاهدوه من مشاهد مؤلمة نتيجة قصف ملجأ العامرية، كما أن ٧٤٪ من الأطفال الذين سقط أحد أقاربهم شهيدا لديهم الشعور بحب الظهور والتميز على الآخرين ويعود ذلك حسب تقدير الباحثين إلى أن حالة الاستشهاد تعتبر حالة غير اعتيادية وهى أعلى درجة من من درجات التضحية، لذلك أصبح أبناء الشهداء وأقاربهم يشعرون بهذه القيمة السامية من خلال شعورهم بالتميز وحب الظهور والمباهاة على أقاربهم الأخرين وخاصة فى أيام المناسبات والاحتفال «بيوم الشهيد» وفى مراسم رفع العلم، وعند زيارة الوفود للمدارس العراقية .

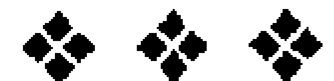
لقد نجحت أمريكا فى أن تنزع البراءة من الطفولة فى العراق لتزرع مكانها الكراهية والحقد وروح الانتقام حيث أن الصدمة النفسية التى تعرض لها أطفال العراق فى كل مكان تركت آثارها السلبية واضحة على حياتهم

النفسية بجوانبها العاطفية والسلوكية❖، فحب التملك والسلوك الاتكالى والمشاكسة والشجار والخجل والملل تعد جميعا من الآثار السلبية التى تركتها حالة الحرب والموت فى العراق .. فحالات الاحباط والفشل التى يعانى منها الأطفال نتيجة استشهاد أبائهم وأصدقائهم وأحبائهم خلقت لديهم الشعور بالاتكالية وطلب المساعدة من الآخرين فى محاولة منهم للفت الانتباه والحصول على السلطة، كما أن الشعور بعدم الطمأنينة وفقد الحماية التى كان ينعم بها الطفل سابقا جعلت منه طفلا خجولا منطويا !!

ـ وهناك صفات مناقضة لحالة التميز وحب الظهور والمباهاة لدى أبناء الشهداء أثبتتها .. نتائج أحد الأبحاث الميدانية الهامة أيضا، عن الآثار النفسية التى يعانى منها أطفال «العراق» من جراء القصف، أن حوالى ٥٨٪ من أطفال العراق يعانون الحرمان من الأم والأب بسبب حالات الاستشهاد وغالبا ماعبروا عن ذلك بضعف الثقة فى النفس والخوف والقلق والإكتئاب والإنعزال والإنطواء وغيرها من الظواهر النفسية التى تدل على الأضرار الناشئة نتيجة الحرمان العاطفى من أحد الوالدين، وقد إتفقت هذه النتائج مع دراسة (Macksond 1988) التى أجريت على عينة من أطفال «لبنان» والتى أشارت إلى أنماط الصدمات النفسية التى تعرض لها الأطفال بسبب الحرب والتى إنعكست على تصرفاتهم فى شكل شعور بالحرمان والإنعزال والهزال الشديد (Unicifp.10).



إن مناطق عديدة من العاصمة بغداد قد تعرضت أثناء حرب الخليج الثانية لضربات مباشرة ومؤلمة كمناطق «ملجأ العامرية، الحارثية، الكرادة» وغيرها مما سبب معاناة هائلة لأطفال هذه المناطق وعائلاتهم .. وكانت أكثر المعاناة تأثيرا وبقاء هى الصدمة النفسية المؤثرة فى حياة الطفل والتى تجلت أمامى بوضوح هنا فى ملجأ الأيتام على وجوه الصبية الصغار الذين فقدوا أصدقائهم وعائلاتهم من جراء القصف الصاروخى للعراق .



❖ الصدمة النفسية عند الأطفال العراقيين نتيجة الحرب والعدوان «بحث ميدانى» إعداد د.إبراهيم كاظم العظماوى استشارى الطب النفسى بوزارة الصحة العراقية .

فى ترقب وقلق أطلا من عينيه العسليتين اللتين إتسعتا عن آخرهما، إقترب منى أحد الصبية الذى لم يتجاوز عمره الخامسة عشر وقال : «ياست» أنا كمان كل أصحابى ماتوا فى ملجأ «العامرية» .. إحترقوا، كنت نايم وصحيت على صوت إنفجار الصاروخ، أمى قالت وقتها إن أمريكا ضربت ملجأ العامرية، وفى الصباح كنت أبحث عن أصحابى إللى كانوا بيلبعوا معايا .. لم أجد «رياض»، ولا «منذر»، ولا حتى صاحبتى «أيار»، وحتى عندما أخرجوا الجثث من الملجأ لم أستطع أن أتعرف عليهم .. كل ما رأيته أجسادا محترقة، بعدها مرضت أمى ولم تجد الدواء .. وماتت، واستشهد أبى فى الحرب وجئت أنا إلى الملجأ !

مددت يدى، ومن فوق وجه الصبى مسحت دمعة رقيقة كانت قد إنسابت خلسة من عينيه الحزينتين، ومن أعماقى رحت أواسيه: لاتحزن يابنى، ولاتأخذك الأحزان إلى مدنها البعيدة فأنا من قبلك ذهبت إليها .. أعرفها .. نعم فمازلت أذكر ذلك اليوم الحزين .. كنا فى صباح أحد أيام شتاء «يناير» الباردة فى إحدى السنوات القليلة الماضية التى سبقت عام ١٩٧٣ .. وكانت السحب الملبدة بالغيوم قد أصرت أن تحجب عن مدينة «رأس البر» ضياء شمس هذا اليوم .. كنا كأسراب الطيور نقف فى الطابور الصباحى لمدرستنا الإبتدائية وعندما إنتهينا من مراسم تحية العلم بدأت «ناظرة» المدرسة تتكلم .. ظننا ببراءة طفولتنا وقتها أنها تنوى أن تعطينا درسا فى نظافة فصولنا أو حوش المدرسة! لكن صوتها جاءنا حزينا، متقطعا وهى تقول : إياكم يا أولاد أن تمدوا أيديكم على أية لعبة أو أية ثمرة فاكهة تجدونها ملقاة على الأرض .. وإللى مش ح يسمع الكلام ح يموت زى زميلكم «عمر» عمر يا أولاد وجد قنبلة على شكل لعبة فى الشارع ولما مسكها إنفجرت فيه ومات!! ياولاد اسرائيل كل يوم بترمى علينا من الطائرات قنابل على شكل لعب جميلة وفاكهة ناضجة وياويله إللى يقرب منها .. ح يموت زى زميله «عمر» ! ..

يومها لم ندخل فصولنا .. ولم نكتب دروسنا .. خرجنا من المدرسة فى طابور طويل .. وكل منا يمسك فى يده بوردة أعطوها لنا فى المدرسة وقالوا

لنا ضعوها على قبر زميلكم «عمر» !

المسافة بين المدرسة وبين مقابر هذه المدينة الصغيرة التى هجّرونا إليها لم تكن قصيرة .. والحوار عن إسرائيل والموت لم ينقطع بين الأطفال! اقتربت منى زميلتى «ماجدة» وقالت : أنا خايفة من الميتين .. أنا خايفة أموت وأدخل «التربة» مع عمر !!

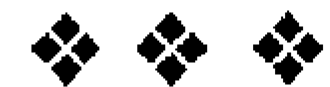
كانت هى المرة الأولى التى أرى فيها «مقبرة» فى حياتى القصيرة . وقتئذ .. وأعتقد أيضا إنها كانت الأخيرة لأننى حتى بعد وفاة والدى لم أستطع أن أذهب ولو مرة واحدة لزيارة قبره !!

كان «عمر» الصغير ابن الثامنة يرقد فى نعشه وقد لفوا جسده النحيل بقماش من «البفتة» البيضاء .. بينما لمحت أنا قدميه الصغيرتين .. وأخذت أحملق فيهما .. كانتا ناصعتى البياض كقدمى تمثال من الشمع .. بحثت فيها عن نقطة دماء من آثار إنفجار اللعبة فى جسده فلم أجد! .. بجانبى كانت «أم عمر» تمسك بشال أسود، تفرده عن آخره وتهزه يمينا ويسارا أعلى رأسها وهى تصرخ : ياحبيبى ياعمر .. قتلوك يا إبنى! .. وعلى صدى صراخها كان قلبى الصغير يدق بسرعة.

عندما عدت إلى بيتنا .. سألتنى أمى إذا كنت أشعر بتعب فقلت لها أن جسدى يرتعش وقلبى يدق بسرعة .. وضعت أمى كفها على جبينى وصرخت فى وجهى : «البنت عندها حمى»! يومها حملتنى أمى على كتفها ولم تترك مستشفى أو مستوصف فى مدينة رأس البر إلا وأدخلتنى إليه للكشف، وكانت الإجابة واحدة : لابد من السفر إلى بورسعيد لدخول مستشفى الحميات حيث المستشفيات هناك لم تغلق أبوابها إذ كانت دائما فى حالة استعداد لاستقبال المرضى والجرحى من العسكريين والمدنيين الذين لم يهجروا المدينة بحكم طبيعة عملهم!. أما المستشفيات فى رأس البر فكانت فقيرة ولايوجد بها غير أدوات الاسعافات الأولية.

فى مستشفى الحميات ببورسعيد .. مرت أيام كثيرة وأنا فى حالة غيبوبة .. وعندما أفقت، قالت لى أمى التى بدا وجهها شاحبا كمن لم ينم منذ

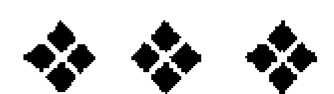
سنين : أنت نجيتِ من الموت بأعجوبة! وسألتنى عن «عمر» هذا الذى كنت أردد أسمه فى غيبوبتى .. فقلت لها إنه زميلى الذى قتلته إسرائيل .. وأننى لن أمد يدى على لعبة ملقاة على الأرض حتى لا أموت مثل عمر !!



عندما خرجت من ملجأ الأيتام فى بغداد سألت زميلتى وفاء : ما مصير هؤلاء الصبية الذين واجهوا ويلات الحرب .. كيف سيكون حالهم عندما يبلغون السن القانونية ويضطرون لمغادرة الملجأ ومواجهة الحياة والمجتمع ؟

قالت وفاء التى بدا وجهها حزينا : كل صبى هنا تسكنه روح الانتقام .. يشعر بالثأر ويعيش على أمل اليوم الذى يخرج فيه من وراء قضبان هذا الملجأ .. يوم يرفع الحصار عن بلاده، لينتقم ممن قتلوا أباه وأمه وحاصروا بلاده .

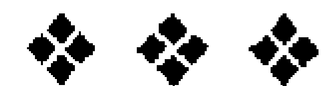
قلت لوفاء : يومها لن يكون هناك صدام واحد .. سيكون هناك ياعزيزتى ألف صدام !!



فى شوارع بغداد لم يكن المشهد أفضل مما كان عليه داخل «ملجأ الأيتام» .. ظاهرة غريبة وشاذة وجديدة على المجتمع العراقى - الذى عرفته عن قرب فى الثمانينات - بدأت تعرف طريقها إليه بعد الحصار .. أطفال وصبية صغار تمتلأ بهم الشوارع، يحترفون التسول وبيع المناديل وغسيل السيارات ومسح الأحذية للمارة .. صحيح أن هذا المشهد ليس بغريب على عينىَّ ففى القاهرة وبامتداد الشوارع هو مشهد مألوف ومتكرر، لكن فى العراق، وفى ظل الرفاهية الاقتصادية التى كان يعيشها الشعب العراقى قبل الحصار كان من المستحيل أن تجد هذا المشهد، على الأقل فى شوارع العاصمة بغداد، حتى فى حي «المربعة» المتفرع من شارع الرشيد أشهر شوارع بغداد وهو حى يشبه أحياء مصر القديمة لذا كان ولايزال يقطنه بعض المصريين الفارين من تنفيذ أحكام القضاء المصرى عليهم حيث يعيشون فى هذا الحى «كالمطاريد»، أقول أنه حتى فى هذا الشارع كان من

الصعب أن تجد أحدا من العراقيين أو المصريين يحترف التسول أو يسأل المارة !

وإذا كان المتسول فى كل شوارع العالم يجد فى النهاية من يدس يده فى جيبه ليخرج مايعطيه له، فإنه هنا فى العراق لن يجد يدًا تمتد إليه ولو بدينار واحد .. فالناس جميعهم فى العراق فى ظل الحصار الأمريكى يواجهون الجوع والمرض والموت والفقر والحاجة . فماذا يقدمون لغيرهم ؟!!



ـ أمام أحد الأرصفة حيث إفترش بعض الصبية الصغار الأرض .. طلبت من «أبو ياسر» سائق سيارة الوفود أن يتوقف بنا قليلا .. لم ينتظر الصبية أن نذهب إليهم بل إنهم بمجرد أن لمحونا ننزل من السيارة أخذوا يلتفون حولنا يسألوننا دينارا أو ثمن رغيف خبزا إقتربت من صبى صغير لايتجاوز عمره التاسعة .. وكان رغم برودة شهر فبراير يرتدى ملابس خفيفة ملطخة بشحم السيارات والتراب، كما أنها كانت ممزقة وتكشف عن معظم جسده النحيل الذى أخذ يرتعش خلف صندوق مسح الأحذية الذى يتدلى من رقبته .. أما وجهه فقد كان هو الآخر متسخا وملطخا بألوان ورنيش الأحذية، فلم يعد يظهر منه غير عينين بنيتين غائرتين فى عمق الجمجمة، وكان شعره البنى الناعم الذى يعلوه التراب يغطى كل جبهته .. عندما سألته عما إذا كان يذهب إلى المدرسة أم لا؟ قال : إن أمه أخرجته عندما كان فى الصف الثانى الابتدائى ليعمل ويساعدها فى الانفاق على أسرته المكونة من ستة أفراد غيره .. وذلك بعد وفاة أبيه بمرض خطير أصاب معدته بسبب شرب المياه الملوثة بعد حرب الخليج !❖

سألته : وهل تكسب من مسح الأحذية دينارات كثيرة تساعد بها أمك ؟

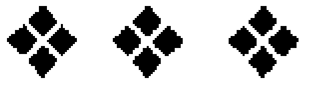
❖ في تقرير له عن الوضع الصحي في العراق كتب الصحفي «باتريك تيلر» في صحيفة نيويورك تايمز بتاريخ ٢٤/ ٦/١٩٩١ يقول: أدي قصف الحلفاء لمحطات الطاقة الكهربائية إلي الحيلولة دون تصفية المياه ودون تصريف المياه الثقيلة التي أخذت تملأ شوارع المدن ومن ثم تصب في مياه الأنهار بلا معالجة، وهي ذات الأنهار التي لجأ إليها الملايين من سكان العراق للحصول علي مياه الشرب أثناء الحرب، وقد أدي هذا إلي إنتشار الكوليرا والتيفوئيد وأمراض المعدة وغيرها من أمراض الإسهال التي لها علاقة بتناول مياه الشرب .

فقال الصبى وهو يتعجب من سؤالى : «ياست» الناس هنا مابيمسحوش أحذيتهم .. هم يادوب يقدروا يدفعوا ثمن الخبز لكن ربنا بيسهلها !

من خلفى كان يقف صبى آخر يحاول أن يمسك بيدى .. وعندما أدرت وجهى ناحيته سألنى دينارا فسألته: لماذا تشحذ؟ قال وهو يلوح بيده فى اتجاه وجهى: علشان الحصار .. أبويا مات فى الحرب وأنا كنت صغير وأمى «مو» قادرة تصرف عيلنا، كل اخواتى خرجوا من المدرسة وبيشتغلوا، أمى بتقول إن أبويا كان تاجرا كبيرا وإنها باعت كل شىء بعد الحصار .. أختى «عواطف» ماتت السنة إللى فاتت لأن الدكتور قال إن عندها سرطان فى الدم وعلاجها مش موجود فى مستشفيات بغداد !.

سألته : وبتاكلوا لحم كم مرة فى الأسبوع ؟

عادت النظرة البائسة تطل من عينىّ الصبى مرة ثانية لينخلع لها قلبى من مكانه. قال وهو يضرب كفه الصغير بكفه الأخرى: لحم أيه ياست، ده إحنا يادوب ناكل بطاطس وأرز، وفى الصباح الخبز والشاى ، حتى الحليب أمى ماتقدرش تشتريه !!



على المقعد المجاور لى بصالة الاستقبال بفندق «الرشيد» .. كانت تجلس بجوارى د. سوسن الجلبى الاستاذ بكلية التربية «جامعة المستنصرية» فى بغداد، كانت د.سوسن تحدثنى عن الوضع الاقتصادى والاجتماعى للأسرة العراقية فى ظل الحصار، وعن مرتب الاستاذ الجامعى الذى لايتعدى «أربعة دولارات» شهريا!! وعن الحصة التموينية التى لاتكفى الأسرة أكثر من أربعة أيام، وعن وزنها هى شخصيا الذى زاد كثيرا بسبب كثرة تناول النشويات حيث لم تعد اللحوم تعرف طريقها إلى البيوت العراقية - قالت د. سوسن بصوت يملؤه الأسى : صدقينى الأم العراقية تضطر الآن أن تتبع مع أولادها نظام التناوب فى الطعام !! .. وعندما لاحظت « د.سوسن دهشتى عادت لتقول : بمعنى أن الابن الذى يتناول اليوم وجبة تحتوى على أى نوع من أنواع البروتينات لايتناول نفس الوجبة فى اليوم التالى بل يتركها

لأخيه ليأكل هو وجبة خالية من البروتين، وهكذا❖.. فثمن الدجاجة الواحدة ياعزيزتى أصبح يعادل مرتب فرد فى الشهر، فكيف للمواطن العادى أن يشترى دجاجة أو حتى نصف كيلو لحم ؟، أنا شخصيا رغم أننى استاذة جامعية وزوجى كذلك إلا اننا نضطر أن نعمل فى أكثر من وظيفة، وبيتى لاأكاد أدخله إلا لساعات قليلة للراحة ، وكل ذلك من أجل توفير أبسط أنواع الطعام لأولادنا .. أنا وزميلاتى فى الجامعة لم نشتر فستانا واحدا جديدا منذ سنوات! بعنا أثاث بيوتنا بأبخس الاثمان .. مكتبتى الخاصة التى تضم نفائس الكتب العلمية والأدبية بيعت على رصيف شارع «المتنبى» بدينارات قليلة !!.

قلت للدكتورة سوسن اننى حزينة من أجل مايحدث فى العراق وخاصة للأطفال وحكيت لها عن ماحدث لى فى ملجأ العامرية وعن الاطفال الذين قابلتهم فى شوارع بغداد .. وتنهدت د . سوسن من أعماقها وهى تقول : هل تعلمين ياعزيزتى أن بحثا شاركتنى فيه «د.سميرة البدرى» الاستاذة بكلية التربية للبنات وأجريناه على عينة من اطفال المدارس الذين استشهد آبائهم أو امهاتهم أو اخواتهم من جراء قصف « ملجأ العامرية» .. جاءت نتائجه لتؤكد كراهية الأطفال الشديدة لدول العدوان على العراق ورغبتهم فى الرد عليهم ، وهى تقريبا نفس النتائج التى خرجت بها الدراسات السيكلوجية التى أجريت على أطفال «لبنان» و «موزمبيق»، والتى أكدت على أن النزاعات المسلحة كان لها تأثير واضح على سلوك الأطفال، إذ أن أطفال الحروب عبروا عن معاناتهم النفسية بالحزن والقلق والاضطرابات السلوكية بمختلف أنواعها.

كانت د. سوسن التى أخذت على عاتقها مهمة دراسة الآثار النفسية التى أحدثها قصف ملجأ العامرية على أطفال العراق والمجتمع العراقى تتحدث وقد حفظت عن ظهر قلب كل القوانين والبنود والاتفاقيات المتعلقة بحقوق الطفل .. وعلى غير طبيعتها الهادئة ، علا صوتها وهى تقول : هذا الفعل الجبان أدى الى فقدان كثير من الأطفال لأبائهم وأمهاتهم وأخواتهم

❖ «أثر الحصار الاقتصادي علي الحالة الغذائية للأطفال دون الخامسة من العمر» أنظر ملحق الجداول .

وأصدقائهم الذين استشهدوا من جراء القصف، ولهذا النوع من الفقدان والمشاهد المروعة التى تركها العمل الوحشى الجبان آثار كبيرة وبالغة الخطورة على شخصيات وسلوكيات الكبار والصغار .. فقصف ملجأ العامرية كانت له آثار سلبية خطيرة على شخصية الأطفال فى العراق مما زاد من قلقهم وتوترهم وربما يجعلهم ذلك عاجزين مستقبلا عن مواجهة المشكلات والثبات أمامها وبذل الجهد لحلها ، وهى تقريبا نتائج تتفق عليها كل الدراسات التى تتناول أطفال الحروب.

وأقول للدكتورة سوسن : معنى ذلك أن قصف «ملجأ العامرية» سيحصد نتائجه السلبية والنفسية جيلا كاملا من العراقيين ؟؟ .

طبعاً ياعزيزتى .. مرحلة الطفولة هى من أهم المراحل فى حياة الانسان باعتبارها مرحلة تكوين وإعداد تتكون فيها مقومات الشخصية المستقبلية للفرد وتتعدد فيها مسارات نموه تبعا لما توفره البيئة المحيطة به، وهى كذلك المرحلة الحاسمة وخاصة فى سنواتها الخمس الأولى، إذ يجرى فيها اندماج خبرات الفرد مع صفاته التكوينية ويشكلا معا وحدة وظيفية متكاملة .. وتستمر هذه العملية طوال حياة الفرد ولكن فاعليتها تبدو على أشدها فى سنوات النمو الأولى، لذا فان الخبرات التى يتعرض لها الأطفال أثناء مرحلة الطفولة المبكرة يعتبر من أهم المؤشرات الاساسية التى تؤثر على نموهم النفسى والاجتماعى❖ أخذت د. سوسن نفسا عميقا وكأنها شعرت براحة بعد أن أزاحت عن كاهلها حملا ثقيلا، ثم قالت وهى تلملم أوراقها وتستعد للرحيل : ياعزيزى ليست الطفولة فقط هى التى وئدت فى العراق .. فأخطبوط الحصار طالت أذرعه كل شئ .. التركيبة النفسية والاجتماعية للمواطن العراقى نفسها تغيرت بفعل الأزمة الاقتصادية الطاحنة.

الإكراميات أصبحت شيئا عاديا .. زادت حالات الرشوة المقنعة .. أزمة

❖ أشار تقرير لجامعة «هارفارد» أن أطفال العراق يعانون من مجموعة إضطرابات عاطفية وفكرية واضطرابات في النوم والتركيز، وأن نسبة ٥٧٪ من النساء العراقيات يعانين حالات مرضية منها الأرق وفقدان الوزن والصداع.

الحصار الطاحنة اقتلعت قيم ومبادئ قديمة ليحل محلها سلوكيات غريبة !
قولى لى بالله عليك .. ماذا يفعل الموظف البسيط أمام أفواه أطفاله المفتوحة تطالبه بالغذاء ؟ ماذا يفعل أمام أنات طفله الذى يموت أمامه وهو لا يملك ثمن زجاجة الدواء ؟.. اذهبى بنفسك إلى المستشفيات وشاهدى بعينيك كيف يموت الأطفال .. كيف تموت الملائكة وتزهق أرواحهم البريئة !!.

●●● زهراء، أنت.. أتذكرين تنورنا الوهاج تزحمه أكف المصطلين؟ وحديث عمتي الخفيض عن الملوك الغابرين ؟ ووراء باب كالقضاء قد أوصدته على النساء أيد تطاع بما تشاء.

■ على العشاء بمطعم فندق الرشيد .. كان الأطباء المصريون من أعضاء الوفد الشعبى المصرى قد عادوا من المستشفيات العراقية بعد أن قام بعضهم بإلقاء المحاضرات العلمية على الأطباء العراقيين، بينما قام البعض الآخر بإجراء بعض العمليات الجراحية .. كانوا يتحدثون بأسى ومرارة عن الحالة المتدهورة التى أصبحت عليها المستشفيات بالعراق، المعدات أصابها العطل بعد ثمانى سنوات من الحصار حيث لاتوجد قطع غيار، أجهزة التنفس الاصطناعى معطلة وغرف العمليات خربة، د. «رأفت الشافعى» الذى قام بإجراء عملية ولادة لحالة مستعصية عاد يضرب كفا بكف وهو يقول: صرخات الأم كانت تمزق قلبى، كانت الأم نصف مخدرة وأنا أجرى لها الجراحة القيصرية. لايوجد بنج، لاتوجد خيوط، وغرف العمليات أصبحت غرفاً لاستعجال الموت ومن يدخلها يحكم عليه بالموت.

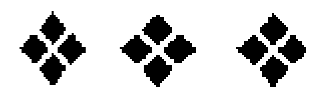
د. ياسر المليجى أستاذ أمراض العمود الفقرى والذى قام بالكشف على العديد من الحالات وألقى بعض المحاضرات العلمية قال: خسارة .. كان الأطباء العراقيون أمهر الأطباء فى العالم العربى .. معلوماتهم الطبية توقفت إلى ماقبل ثمانى سنوات، الكتب العلمية لاتصلهم، حرموا من البعثات العلمية، أكثر من ٨٠ حالة زمالة توقفت، بصراحة الجامعات المصرية المفروض أن تلعب دورا فيما يحدث للأطباء العراقيين من تخلف

علمى !!

د. ناصر النادى أخصائى العظام الذى أخذ على عاتقه مهمة أصطحاب الوفود المصرية من الأطباء إلى العراق يضرب الطاولة بكفيه وهو يصرخ فينا : كان ح يجرى ايه لو كانوا سمحوا لنا فى مطار القاهرة بحمل كل كمية «الجبسونة»❖ إلى العراق؟.. ياجماعة اللى بينكسر ذراعه فى العراق بيصبح عاجز !!

المهندس محمود .. قال بأسى : أنا النهاردة وقفت عاجزا أمام أحد الأجهزة بغرفة بغرفة العمليات .. الأجهزة متآكلة وغير صالحة للاستخدام .. سهل جدا أن يتوقف جهاز الغسيل الكلوى أثناء إجراء عملية الغسيل .. وتخيلوا معى مايمكن أن يحدث للمريض فى هذه الحالة❖ !!

كان الجميع يتحدث بينما أخذت أنات «خلود» تخترق آذاننا وهى تشكو من آلام فظيعة بأحد ضروسها، وكان لايمكن أمام شعورها هذا بالألم، ووجهها الذى يزدادُ اصفراراً لحظة بعد الأخرى أن نقف عاجزين، فاصطحبناها إلى إحدى عيادات أطباء الأسنان فى بغداد، وهناك صرح لنا الطبيب بأنه لايوجد بالعيادة أى نوع من أنواع «البنج» يمكن استخدامه إذا لزم الأمر .. وكان طبيعيا ألا نصرح بذلك لخلود التى أجرى لها الطبيب عملية خلع لضرسها بدون استخدام البنج، فكانت صرخاتها المتواصلة تمزق قلوبنا وتجسد بصدق هذا الواقع الأليم للوضع الصحى بالعراق فى ظل أزمة الحصار❖



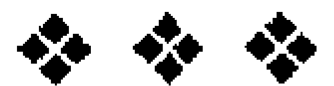
❖ الجبسونة هي المادة المستخدمة لتجبيس حالات كسور العظام .

❖ أكدت إحصائيات وزارة الصحة العراقية أن العمليات الجراحية إنخفضت بنسبة (٣٠) بالمائة عما كانت عليه قبل الحصار وفى بعض الأحيان يضطر الجراحون إلى تأجيل (٧٠) بالمائة من الحالات التى تحتاج إلى تدخل جراحى، وذلك بسبب نقص مادة التخدير والمستلزمات الطبية الأخرى التى تدخل فى هذه العمليات (أنظر الملحق) .

❖ في تصريح للدكتور «أوميد مدحت مبارك» وزير الصحة العراقي أكد أن النقص الكامل في مستلزمات التخدير جعلت الأطباء العراقيين يستخدمون بدائل محلية لعالجة مرضي الأسنان وهي لاتعطي سوي ربع أو نصف تأثير المخدر الطبي المعروف للاسنان – كما أن هناك حالات تعالج بدون تخدير .

مـرت ثلاثة أيام على وجـودى فى بغـداد وأنا عـبـثـا أحـاول أن أجـمع قـواى لزيارة مـستشفيات الأطفـال، الفـزع يتملكنى من كثـرة ماسـمعته من الأطباء المصـريين وباقى أعـضـاء الوفـد عن حـالة الأطفـال بالمسـتشـفـيـات، المخـرج «حسـام على» قـال إن الكامـيـرا كـانت ترتعش فى يده وهو يصـور الأطفـال، و«محمد حجازى» المصور الصحفى بمجلة نصف الدنيا حكى لى عن بشاعة الصـور التى إلتقطها لـلأطفـال العـراقيين والتى ستهـز وجـدان العـالم سـواء بنشـرها فى الصحف أو من خلال المعرض الذى سينظمه ويطوف به الدول العربية !

شـبح ملجـأ العـامـرية يطاردنى .. رائحـة الموت هـناك مـازالت فـى أنفى .. صـور الأطفال الأبرياء بعيونهم الحـزينة المعلقـة بطول جدران الملجأ مـازالت تسكن عينى .. كيف إذن يمكن أن أتحمل رؤية البـراءة وهى تغتال أمامى .. وأنا أقف سـاكنة - كيف لى أن أرى الملائكة تحـتـضـر؟ هل سـأتحـمل مـرة أخرى صوت زقزقة العصافير فى رحلتها إلى العالم الآخر ؟



أمام العيـادة الخـارجية بمستشفى صدام المركزى للأطفـال، كانت أكثـر من ألف أم يحـملن أطفـالهن وقـد افـتـرشن الأرض فـى إنتظار زجـاجـة دواء أو قـرص أسـبـرين لتسكين آلام الأطفـال .. كان الهـزال والإعيـاء واضـحـا على الرضع والصـغـار .. العـيـون غـائرة.. والـوجوه شـاحـبـة وهاهـى واحـدة منهن يتدلى ثديها هـزيلا تدسه فى فم رضيعها، يتركه ويصـرخ من الجـوع والألم .. لايجـد فى ثديها مـايسكت جوعه، لقـد أصابها فقـر الدم والأنيميـا من قلة الطعام، وأمريكا «المغوارة» ضربت معامل حليب الأطفال الذى شح بالأسواق بعد الحصار، وحتى إن وجد فمن أين لهذه الأم المسكينة أن تأتى بثمنه ؟

يفتح «أبو ياسـر» شنطة السيارة ويأتينا بكرتونة محملة بحليب الأطفـال .. يشرق وجه الأم فجأة وهى تمد يدها باستماتة لتلتقط علبة حليب لطفلها .. يعلو صـراخ الطفل الرضيع، تناديني نظراته، أحتويه بين ذراعى، أضمه بشدة .. أتذكر إبنى، أشعر برغبـة قوية فى رؤيته وإحتضانه الآن، يزداد

عناقى للطفل الرضيع، تقول أمه : والله كان زين .. وزنه نقص «كلشن»❖، الأطباء قالوا لى إن عنده سوء تغذية، أنا عارفة إنه ح يموت. !

بين ركام البشر المتعبين المتناثرين على جانبى البوابة أعبر الطريق إلى قسم الطوارىء بالمستشفى .. يصطحبنى أحد الأطباء المقيمين، يقول بنبرات لاتخلو من الحسرة: هذا المستشفى كان قبل الحصار محطة متميزة فى كل منطقة الشرق الأوسط، كان يوفر عناية فائقة للمرضى بقياسات دولية متطورة شهد بها الجميع❖. والآن بعد الحصار وكما ترين الأجهزة معطلة والمستلزمات الطبية غير موجودة ولاتوجد أية أدوية .. ونحن نقف عاجزين أمام موت الأطفال، قسم الطوارىء الذى صمم لاستقبال خمسين مريضا فى اليوم يستقبل الآن أكثر من ١٢٠ مريضا فى اليوم الواحد، ويتضاعف هذا العدد أيام العطلات.

أنظر حولى .. يقولون إن الملائكة لاتموت .. ولكننى هنا أراهم يموتون أمامى بالمئات!! على الأسرة تتزاحم الأجساد الصغيرة التى غادرها اللحم تاركا الجلد وحده يكسو العظام الهشة، العيون مفتوحة عن آخرها والنظرات شاردة والشفاه مفتوحة فى إنتظار كوب حليب لن يأتى. الجسد ضامر ويد الممرضة تحاول أن تلملم ماتبقى منه، تكور ماتبقى من جلد بين أصابع يدها لتغرس فيه حقنة ربما تخفف من آلام الصغير !.

فوق السرير الواحد يتمدد أكثر من ثلاثة أطفال ومن حولهم تجلس الأمهات صامتات شاردات لاينطقن بكلمة، ينظرن إلينا، تهمس أحداهن : تأخرتم وايد❖.. !!

إنتظار الموت - الذى لابد آت - مشهد يتكرر يوميا هنا فى مستشفى صدام، ومن فوق الأسرة البيضاء يجمعون بقايا البشر مع كل ساعة تمر، من هنا

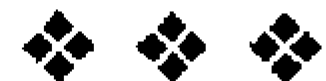
❖ «كلشن» كلمة من اللهجة العراقية تعني (كل شئ) أي نقص وزنه جدا .

❖ في العراق (٢١٦) مستشفى توفرت لها أحدث المعدات الطبية و (١٠٣٢) مركزا صحيا عيادة طبية شعبية تعرضت هذه المرافق شأنها شأن الخدمات العامة الأخري لدمار شامل من جراء القصف الوحشي لأمريكا وحليفاتها علي العراق .. وتوقف الآن الكثير منها عن تقديم الخدمات إلي الناس.

❖ تأخرتم كثيرا .

تنطلق كل يوم مئات الأرواح فى رحلتها إلى السماء. من هنا يزفون الملائكة وتطير العصافير إلى مقرها بالجنة الموعودة ! .

يهمس فى أذنى الطبيب : كل يوم يموت أكثر من ١٣٠ طفلا دون عمر الخامسة بسبب مرض سوء التغذية ومضاعفاته اللعينة .. أكثر من مليون طفل بالعراق يعانون من سوء التغذية والأمراض الناتجة عنها كالهزال ومرض الجوع وفقر الدم .. وهذا الكلام ليس من عندى ـ يواصل الطبيب ـ فمن أخطر النتائج التى توصل إليها التقرير الذى أعدته منظمة «اليونيسييف» بالتعاون مع العراق سنة ١٩٩٧ أن ٣٢٪ من الأطفال دون سن الخامسة أى ٩٦٠ر٠٠٠ طفلا مصابون .. بمرض سوء التغذية المزمن، وذلك بزيادة قدرها ٧٢٪ عن عام ١٩٩١ ـ وأن مايقرب من ٢٣٪ من هؤلاء الأطفال أقل من الوزن الطبيعى !!



إن الغذاء حق من حقوق الإنسان ، حق أقرته الأعراف والشرائع السماوية وكل القوانين الوضعية والأرضية بما فى ذلك قانون حقوق الإنسان الصادر عام ١٩٤٨ وإتفاقية حقوق الطفل عام ٩٩٠ وكذلك المؤتمر العالمى للتغذية عام ١٩٩٢ الذى نص على أن الغذاء حق من حقوق الإنسان ولايمكن إستخدامه كوسيلة من وسائل الضغط على الشعوب لتغيير آرائها ومعتقداتها ومبادئها ـ كما أكد هذا الحق مؤتمر الغذاء المنعقد فى روما عام ١٩٩٦ .

وفى العراق – وعلى مرأى ومسمع من العالم كله ـ لايتحقق أى بند من هذه البنود .. وأمامى أرى الأطفال هم أكثر الفئات فى المجتمع العراقى الذين يدفعون الثمن فى ظل حصار يخالف كافة الشرائع السماوية والوضعية.

ـ أتذكر ما كتبه زميلى الأديب «أحمد هريدى» عن حياة أطفال «استكهولم» فى كتابه «زهرة الشمال»: هاهم أطفال استكهولم نتاج مجتمع الحقيقة والعدل .. هذه قوة السويد العادلة تنجب أطفالا وشبابا أسوياء مختلفين عن طفولة وشباب الشاعر والمسرحى السويدى «أوجست ستراندبرج»

(١٨٤٩ ـ ١٩١٢) .. الفارق كبير بين طفولة «ستراندبرج» السويدى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر المفعمة بالآهات والأحزان وطفولة سويدية تعيش نهايات القرن العشرين سعيدة ومثقفة ونضرة.

أصرخ من أعماقى: عشقت السويد فى كتابك ياصديقى، وفى العراق كرهتها أنا .. كرهتها فى ملجأ العامرية عندما علمت أن السويديين هم الذين سربوا خرائطه إلى الأمريكان! خونة .. تضج وجوه أطفالهم بالعافية بينما يغتالون شبع الرضيع فى العراق .. ويحيلون أمنه فزعا .. فأى عدل هذا الذى يتكلمون عنه هناك؟ ينجبون أطفالا أصحاء ليلقنوهم دوروسا فى الخيانة والغدر !! وندفع هنا نحن الثمن .. هل خدعتك السويد يا أحمد؟. هل خدعتك وردة الصقيع بلونها الأبيض ؟

أنظر إلى أكوام الأجساد الصغيرة من حولى بمستشفى صدام .. أسأل نفسى: لماذا أطفالهم هناك أصحاء وأسوياء .. وأطفالنا هنا يعانون الجوع والمرض ويموتون ظلما؟.. طفولة العراق لم تعد تختلف ياصديقى عن طفولة شاعرهم (ستراندبرج) فى القرن التاسع عشر المفعمة بالآهات والأحزان ..

أتجول بين ردهات وعنابر مستشفى صدام الذى يضم «٣٣٠» سريرا مشغولة جميعا على مدار العام، وأمام أحد الأسرة أتوقف .. أقرأ أسمه على استمارة علقت بأحد أعمدة السرير، «محمد عبد السادة» ـ وأنظر أمامى «محمد» ممدد بطول السرير .. ذراعاه كعودى قصب، الجلد فوق عظام جسده أشبه بلفة خيوط تريكو معقدة، شعره تراجع عن جبينه تماما، شفتاه بارزتان ومفتوحتان على أسنان ملأت الفم .. أسأل الطبيب عن عمر محمد فيقول : «١٣سنة».. أصرخ : مستحيل !! .. أعود لأسأله عن مرضه فيقول الطبيب : سوء تغذية شديد، أسأل هل هناك أمل فى شفائه، يصمت الطبيب ويذهب بوجهه بعيدا عنى !! .. بينما بقيت عينا الأم معلقة بوجه طفلها الشارد كعصفور هارب من صوت إنفجار مدوى !! .. وبقيت أنا واقفة أمام سرير محمد باكية بينما تتردد فى عقلى رباعية صلاح جاهين :

عيني رأت مولود علي كتف أمه

يصرخ تهنن فيه .. يصـرخ تضمـه

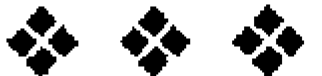
يصرخ تقول يا ابني ماتنطق كلام

ده إللي مايتكلمش.. ياكتر همـّه

عجبي !!

داخل حـجـرات الأطفـال حـديثى الولادة .. كـانت الصـورة أكـثـر قـتـامـة والرحـلات إلى العـالم الآخر جماعية ومتلاحقة .. يخـرجـون من الأرحام ليخرجوا من الدنيا بأسـرها .. هكذا سـريعـا! وبينمـا تؤكد آخر الأبحاث الطبـيـة أن «١٠ بالمائة» من المواليـد يموتـون أثناء الولادة (٥ آلاف طفل شهريا) فإن النسبة المتبقية من المواليد لاتنجو من أمراض تشوهات القلب والتشـوهات الخلقـيـة الناتجـة عن الأمـراض الوراثيـة والتلوث الجـرثومى، ناهيك عن زيادة معدل حالات البله المغولى إلى ثلاثة أضعاف بسبب عدم توفر الأدوية التى تعالج حالات عدم توافق الجينات الوراثية بين الأبوين.

أغادر مستشفى صدام إلى مستشفى المنصور للأطفال ببغداد لتكتمل دائرة الحزن داخلى، وليعلو صوت زقزقة العصافير المجروحة فيكاد صياحها يطيح برأسى، وفى السيارة أخرج «المرآة» من حقيبتى .. أنظر إلى وجهى .. وجهى أصبح يشبه كل وجوه الأمهات فى العراق .. أطيل النظر إلى وجهى . حزينة أنا ومحبطة.



فى مستشفى «المنصور» للأطفال أرى مئات الأطفال المصابين بأمراض سرطان الدم والتشوهات والغدد الليمفاوية وأمراض الإسهال والجهاز التنفسى وكلها أمراض خلفتها الأسلحة التى استعملتها أمريكا فى جنوب العراق أثناء حرب الخليج الثانية .. ففى رحلتها لسحق الطفولة العراقية استعملت أمريكا أشد أنواع الأسلحة فتكا بالبشرية وهو «اليورانيوم» المخصب والذى مازالت بقاياه الموجودة على حدود السعودية والكويت والعراق تتسبب يوميا فى قتل أعداد كبيرة من البدو، فضلاً عن نفوق

عشرات من الحيوانات البرية متأثرين بالمواد المشعة الباقية منذ انطلقت الأسلحة تفتك بالحياة فى هذه المنطقة.

الأمريكان أنفسهم أرسلوا بعثة أطباء بيطريين لمعرفة السبب وراء نفوق الحيوانات على حدود تلك الدول ولم يجدوا سبباً سوى استمرار اشعاع مادة «اليورانيوم». ونشرت احدى الصحف الأمريكية هذه الحقائق بالإضافة إلى حقائق أخرى تكشف النقاب عن وفاة حوالى «٢٢٠٠» جندى أمريكى متأثرين بالاشعاع النووى وكذلك وفاة أكثر من١٣٠ جنديا بريطانيا بالاضافة إلى «٤٠٠٠» آخرين لايزالوا يعانون من أمراض ناتجة عن هذا الإشعاع.

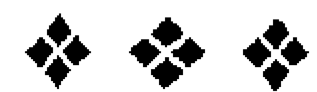
وفى تصريح له لمجلة «الطفولة العراقية» كشف العالم والباحث الألمانى البروفيسور «سيكورت هورس جينشر» رئيس منظمة «الصليب الأصفر» والذى يعتبره العراقيون صديقا لهم، كشف النقاب عن محاولات إغتياله وإعتقاله بالسجون الأمريكية لأنه فضح تقنية صناعة القذائف المشعة التى كانت تتم فى «المانيا» فى سرية تامة !.

إن الأمراض التى خلفها استخدام أمريكا للأسلحة غير المشروعة بالعراق فى حرب الخليج كثيرة، ومازال الشعب العراقى يجنى ثمارها حتى الآن .. وآخر ضحايا مرض سرطان الدم «اللوكيميا» فى مستشفى المنصور للأطفال كانت الطفلة «زهراء» حديث المستشفى كله «زهراء» طفلة فى عمر الزهور الندية .. كانت فى عامها الرابع عندما قامت حرب الخليج .. وتحت الحصار الأمريكى للعراق .. كان جسد زهراء الصغير أيضا يحاصر ويضيق عليه الحصار ويضمر .. ولا أحد يعرف لذلك سببا .. مرت سنوات وسنوات وزهراء الملاك تتعذب .. الألم أكبر من جسدها النحيل .. وفى مستشفى المنصور ببغداد شخص الأطباء مرضها «سرطان فى الدم»، وتحتاج لبرنامج علاج كيماوى لمدة شهر ونصف الشهر .. وبدأت زهراء فى العلاج، كل يوم كان يمر كان جسد زهراء يزداد نحولا، وبينما كان الأمل يحدو قلب الأم فى شفاء زهرة عمرها . كان الموت يقف هناك على أعتاب حجرة زهراء يتربص لخطف روحها البريئة .. وأخيرا حصل الموت على

فرصة عمره حينما أعلن الطبيب أن حبوب «الفنكرستين» و«الدونوبريسيتين» ـ المكونة للعلاج الكيماوى المخصص لزهراء ـ قد نفدت .. يومها بكت الأم وصرخ الأب فى وجه الطبيب : زهراء ح تموت!! وقال الطبيب: «زهراء ليست أول حالة تواجه نفاذ الأدوية أثناء برنامج العلاج .. إنه الحصار اللعين»، وتمر الأيام ويقترب الموت أكثر وأكثر من فراش زهراء .. تتساقط جدائلها الطويلة معلنة تمردها على الحياة فوق رأس الصبية .. تغور عيناها داخل الجمجمة وتتسع بمساحة الوجنتين الضامرتين .. يختفى نهدها الصغير مفسحاً الطريق لغابة من العظام الهشة .. تئن زهراء : آه يا أمى .. تدور الأم المخمورة بين ردهات المستشفى تطرق بكل جسدها المنهك على أبواب غرف الأطباء تصرخ : ألحقونى .. زهراء بتموت !! ويغادر الأب المستشفى يبيع كل شىء فى المنزل .. يطوف كل الصيدليات فى بغداد باحثا عن دواء لزهراء .. وتموت زهراء.. والعراق فى إنتظار إتفاقية النفط مقابل الغذاء، والدواء !!

وأطرق أنا باب د. مهدى صالح» وزير التجارة العراقى باحثة عن إجابة تشفى غليلى فيقول لى: إن النفط لم يعد مقابل الغذاء الدواء .. النفط أصبح مقابل نفقات اللجنة الخاصة !! إن إيرادات النفط تذهب إلى حساب اللجنة بسرعة .. فتستقطع منها بسرعة أيضا حصتها وحصة الأمم المتحدة وحصة التعويضات وتترك ماتبقى لحساب شراء الغذاء والدواء للعراقيين!!، فالولايات المتحدة وإنطلاقا من سياستها العدوانية تجاه العراق ومن أجل تجويع شعبه، امتنعت عن تحرير أى مبلغ من الأموال العراقية المجمدة لدى مختلف الدول، ولم تكتف بهذا الإجراء المناهض لروح الفقرة «٢٠» من الاتفاقية، بل تجسدت هذه السلوكيات فى معارضتها لمعظم الطلبات التى عرضت على لجنة «٦٦١» من قبل الموردين الراغبين فى توريد المواد الانسانية إلى شعب العراق وأستطيع أن أقول إنه منذ شهر آب (أغسطس) ١٩٩٧ لم نتمكن من توزيع حصة متكاملة للمواطنين، ولازالت لدينا من المرحلة الأولى عقود لم يوافق عليها حتى الآن، كذلك المرحلة الثانية لازالت نسبة غيرقليلة من عقود الدواء لم يوافق عليها.

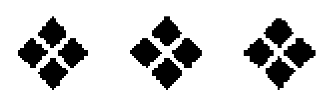
ومن مكتب د. مهدى صالح وزير التجارة الى مكتب «د. أوميد مدحت مبارك» وزير الصحة، كان المخطط الأمريكى لسحق الشعب العراقى يزداد وضوحا فى ذهنى وأنا أستمع إلى د. أوميد يقول : إن الأدوية المتضمنة فى عقود مذكرة التفاهم والتى بدأت تصل إلى العراق فى منتصف عام ١٩٩٧ كانت محدودة جدا، بسبب العراقيل التى وضعها ممثلو الولايات المتحدة وبريطانيا فى لجنة «٦٦١» والتى تمثلت فى الموافقة على بعض العقود، وتعليق العقود الأخرى، أو رفضها، فمثلا نراهم يوافقون على عقود «خيوط العمليات الجراحية» ويضعون التعليق أو الرفض على «قفازات العمليات» أو «مواد التخدير» .. ثم يطلقون عقود قفازات العمليات ويبقون التعليق على عقود مواد التخدير، وبالرغم من مرور أكثر من عام على تنفيذ مذكرة التفاهم فإن المواد التى تسلمها العراق لم تتجاوز مبالغها أكثر من «٥٠٪» من المبلغ المخصص للمرحلة الأولى للقطاع الصحى، وفى الوقت الذى من المفروض أن تسلم فيه عقود المرحلة الثانية فإن «٥٠٪» من المرحلة الأولى لم يسلم والمرحلة الثانية أيضا كلها لم تسلم ولم تصل المرحلة الثالثة !.



رائحة الموت فى مستشفيات الأطفال بالعراق لم تستطع كل أنواع المطهرات النفاذة أن تطردها .. نفس الرائحة التي صاحبتنى فى رحلتى داخل ملجأ العامرية .. وما الفرق؟ الموت هو الموت، والقاتل واحد .. فقط اختلف سلاح الجريمة .. فى ملجأ العامرية أبادوا الأرواح كلها بالصواريخ التى مزقت الأجساد وأحرقتها .. فى العامرية كان الموت جماعيا، لم يفرقوا بين رجل وإمرأة أو بين رضيع وشيخ مسن ..

وفى مستشفيات العراق .. ها هو غول الجوع يمتد بأذرعه اللعينة ليسرق اللحم من فوق عظام الأطفال ليتركها هشة ضعيفة، وفوق الأسرة تتناثر بقايا بشر رفضت أمريكا أن تمد يدها لهم بالدواء .. أى دواء - قلت لنفسى

- أأهذى أنا !! كيف نطلب من القاتل إسعاف القتيل .. أمريكا نفسها رفضت السماح للعراق بشراء سيارات لإسعاف المرضى !!❖



وفى معهد «السعادة» للمعوقين والتابع لوزارة العمل والشئون الاجتماعية بالعراق، كانت مأساة مستقبل العراق تتجسد أمامى فى كل هذا الحطام من البشر الذين طالتهم الإعاقة الجسدية والذهنية من أثار أسلحة الخراب الأمريكية .. مستقبل العراق يرقد أمامى معاقا، وتاريخ مؤلم تحكى فصوله أمهات الأطفال وأدت الحرب فرحتهم ونزعت من عيونهم البراءة ليحل محلها حزن العالم ..

إقتربت منه - اسمه «محمد أحمد» طفل لايتعدى عمره الثمانى سنوات، عمره من عمر الحصار، «ماشوفتيهوش زمان - تقول أمه - محمد كان جميل»، يوم ولادته الكل حسدونى عليه، قالوا لى مبروك عليك الواد، فتحت كفى فى وجوههم: خمسة وخميسة على عيونكم، الشهور مرت ومحمد بيكبر، قالوا أن أمريكا بتضرب العراق ، ضميته لصدرى، مش معقول يا ابنى يضربونا .. شو بدنا فى الحرب».

ورضع محمد من صدر أمه ونام .. لكن صوت الصاروخ زلزل المكان .. وقذف بجسد الرضيع على الأرض .. ومن صدر الصغير خرجت شهقة إنخلع لها قلب الأم .. صرخت : ابنى ! ومن يومها ومحمد يصرخ، يبكى ولا أحد يستطيع أن يسكت صراخه أو يوقف بكاءه .. محمد ابن الثامنة مازال يبكى طفولته المسلوبة .. محمد لم يكبر مثل الأطفال !! ذبل عود الصغير ومن فمه تخرج الكلمات حروفا ليس لها معنى، محمد لايستطيع الكلام، الأطباء شخصوا مرضه «شلل دماغى تشنجى» أثر صدمة إنفجار الصاروخ الأمريكى، محمد يحتاج لعملية كبيرة وأمه تبكى وتقول : «ومن وين

❖ رفض المندوب الأمريكي في لجنة المقاطعة (٦٦١) الموافقة على قيام شركة فرنسية بتجهيز العراق بمائة سيارة إسعاف طبي بموجب اتفاقية النفط مقابل الغذاء والدواء والحاجات الانسانية. وادعي المندوب الأمريكي إن هذه السيارات الطبية ليست ضرورية علي الرغم من أن سيارات الاسعاف تعتبر من الاحتياجات ذات الأولوية .

المصارى» .. حتى عفش البيت بعناه .. أنا تركت وظيفتى الحكومية لأتفرغ لرعاية محمد .. !

ومن مستشفيات بغداد خرجت أردد كلمات الشاعر العراقى فاروق سلومه وهو ينعى طفولة العراق قائلا :

يـــــــــاولــــــــــدى

وجـــــهك طيــــــر ياولدى

قـــــد رف وطاف على بلدى

يـــــــــاولــــــــــدى

يالمســـــــة حب ملء يدى

تحبو .. أو تضحك .. أو تحكى

وتصـــيحُ وتصـــرخُ أو تبكى

لـكـن أيـامـك يـاولـدي

تمضى .. وتدور .. بلا عـــدد

يـــــــــاولــــــــــدى

❖ ❖ ❖

••• ويؤســـــهم المرير : الجـــوع والأحــزان والســقم وطفل مــات لما جف در۔ مـاتت المعزي وجاعت أمـه فــالـثــدي لا لبن ولا لحم ســمـعت صراخها والليل ينظر نجمه غمزا، وولولة الأب المفــجـوع يخنق صـوته الألم.

■ لم يكن صباح بغداد فى ذلك اليوم مثل كل صباح .. كان كل شىء حولنا يبدو حزينا ويبعث فى النفس الأسى : صوت المذيع وهو يخترق سقف حجرتى بالفندق - بمجرد أن أدرت مؤشر الراديو - معلنا تشييع جنازة «٧٣» طفلا أخرين ماتوا من جراء الحصار اللعين، الوجوم يعلو وجوه كل العاملين بالفندق.

«أبو ياسر» - سائق سيارة الوفود - وقد بدت عيناه حزينتان بينما لم تنطق شفتاه بكلمة واحدة وهو يحملنا داخل سيارته مخترقا شوارع بغداد بطرقاتها المقفرة ومنازلها ودكاكينها المغلقة فى طريقنا إلى ساحة الشهداء للمشاركة فى تشييع جنازة أحباب الله.

بامتداد الطريق كان سعف نخيل العراق الباسق على الجانبين قد فقد خضرته وبدا لى باهتا يتدلى من أعلى تحركه رياح يناير الباردة فيرتعش كالجسد المحموم.

أما شمس ذلك اليوم الحزين .. فلا أتذكر إننى رأيتها فى سماء بغداد .. كل ما رأيته كان ذلك اللون القرمزى الحزين الذى خلفته الشمس وراءها بينما توارت هى بضيائها بعيدا خلف كتلة السحاب الرمادية غضبا وإحتجاجا على مايحدث فوق أرض العراق.

اللون الرمـادى يقـتـرب أكثـر من سطح الأرض ليلف المدينة فتـبـدو فى زيها حـزينة ومنكسـرة .. وتقـتـرب بنا السـيارة من «سـاحة الشـهداء» .. الضـجيج يملأ المكان .. أرى كل العـراق هنـا، بقـايا ناسـهـا وأهلهـا يجـرون أقـدامـهم المنهكة خلف كـوكبـة من السـيـارات المحـملة بالنعـوش الصـغـيـرة وقد رقـد بداخلها بقـايا أطفال تلاشت أجسـادهم وأزهقت أرواحهم البريئة ولم يتبق منهم غير تلك الكتل من العظام الملفوفة بعناية داخل قطع القماش البيضاء والموضوعة داخل صناديق خشبية صغيـرة، يعلو كل صندوق رسم لوجه طفل ضاعت بعض مـلامحـه .. أكلها غول الجوع والمرض، وهاهو الموت يأخذهم بعيـدا .. يحلقـون فى سمـاء لايطالها الحـصار، بعيـدا عن أحضـان أبائهم وأمهاتهم، تاركين خلفهم لعبهم ومدارسهم وأشياءهم الصغيرة ..

ونقـتـرب أكثـر من الموكب الرهيب .. نسـاء العـراق المتشـحـات بالسـواد تسـبق أصـوات نحـيبـهن وقـع أقـدامهن المتـعبـة .. والعـيـون شـاردة فى مـوت تحـقق وموت لابد آت ليخطف أرواح من ظلوا أحياء يقاومون ..

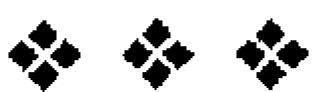
رجال الدين مسلمون ومسيحيون يتقدمون صفوف المشيعين جنبا إلى جنب، فكل الأديان والشرائع السماوية تدعو إلى رعاية الأطفال أحباب الله - يقول السـيـد المسـيح عليه السلام : «دعـوا الأطفـال يأتون إلىَّ» .. وهاهو الـكل يشـرب من كأس واحـد .. يتجـرع نفس المرارة .. هاهم جميـعـا يرفعون الأكف ضـارعين إلى الله أن يرفع عنهم الظلم والموت والحصار.

وفى الموكب الرهيب رأيت نفـسـى أخـتـرق الصـفـوف .. أحـملق فى صـور الأطفـال التى تعلو النعوش .. أصـرخ من أعمـاقى : يا إلهى هذا الوجه رأيته أمس، كـان لطفل رأيته هنـاك .. فى مـسـتـشـفى «المنصور» يرقـد فوق سـريره، تحـتـضنه أمـه تارة، وتتـركـه تارة أخرى ليـرقـد فى سـلام، بينمـا ألمح أنا فى عينيها بريقا من حزن عميق ..

وهـذا وجه لطفـل آخر رأيته منذ سـاعات قليلة، كـان يرقد أمـامى وقد نـزعت عنه أمه كل مـلابسـه لأشـاهـد عظام جسـده النحـيل وقد أخـذت تتـمـرد على طبـقـات جلد جسـده الرقـيـقـة المجـعـدة كـوجـه عجـوز طاعنة .. فإذا بها تكاد

تخترقها لتحتل الصدارة .. أما عينا الطفل فكانتا مفتوحتين، عن آخرهما، خاليتين من الرموش، وقد وضع إصبعيه فى فمه، وعندما شاهد علبة الحليب فى يدى لمحت ابتسامة تعلو وجهه وهو عبثا يحاول أن يمد ذراعه ليلتقطها من يدى، ولكن يده الضعيفة لم تقو على حملها .. فوضعتها بنفسى إلى جانبه وتركته خلفى ينظر إليها، وهاهو اليوم ذاهب بعيدا بعيدا، تاركا خلفه علبة الحليب التى يبدو أنها قد جاءت بعد فوات الأوان.

ومن بين كل النعوش الصغيرة لمحت وجه «نبأ» .. نعم مازلت أذكر هذا الوجه الصغير البرىء، رأيته منذ ساعات قليلة، كان والد «نبأ» يحملها وقد أخذ يروح ويجىء أمام باب مستشفى المنصور للأطفال يحاول الحصول على زجاجة دواء لطفلته، كان وجهه حزينا وقد بدا إحساسه بالعجز واضحا أمام آلام طفلته التى لايتجاوز عمرها العام الواحد .. وماتت «نبأ»، وهاهى تذهب بعيدا إلى عالم لايعرف إتفاقية النفط مقابل الغذاء والدواء !!



إخترق بنا الموكب الرهيب جسر الشهداء لنمر بشارع الرشيد وسط لوعات الأمهات وحسرات الأباء، وأمام بناية رفع عليها علم «الأمم المتحدة» بشارع أبى نواس، توقف بنا موكب الموت أمام ممثلية برنامج الأمم المتحدة وسط صيحات غضب وسخط الجماهير التى إحتشدت على جانبى الطريق تردد فى ذعر : هاهى نعوش أطفالنا الأبرياء وثيقة أخرى ودليل جديد على سياسة أمريكا لتجويع شعبنا ومنع الدواء عن أطفالنا .. (هاكم جثث أطفالنا قبل أن تبرد وتجف عيونها ويذبل عودها الطرى .. النظيف البرىء)❖ هاكم ٧٣ برعما إقتلعت أمريكا جذورها من الحياة.

ولأن الصرخات لم تعد كفى .. ولأن العالم أصبح أصما أبكما أمام مايحدث لأطفال العراق .. فلم يجد أباء وأمهات هؤلاء الأطفال المتوفين حلا سوى التوقيع على مذكرة إحتجاج على الأعمال الإجرامية التى ترتكبها الإدارة

❖ مجلة الطفولة العراقية العدد التاسع ص ١٧

الأمريكية بحق أطفال العراق موجهين إياها إلى «كوفى عنان» الأمين العام للأمم المتحدة ، وقد وثقت هذه المذكرة ـ التى سلمها د .سلطان الشاوى رئيس الجمعية العراقية لدعم الطفولة إلى المسئول عن البرنامج الإنمائى للأمم المتحدة ـ وثقت بصور الأطفال الـ (٧٣) المتوفين مع توقيع عائلاتهم ودعمت بجداول إحصائية تشير إلى زيادة معدل حالات موت الأطفال خلال سنوات الحصار وتزايد الأمراض بسبب نقص الغذاء والدواء❖ .. وقد جاء فى المذكرة :

بغداد فى التاسع عشر من كانون الثانى ١٩٩٨

سعادة السيد كوفى عنان

الأمين الام للأمم المتحدة

نيويورك

باسم ذوي أطفال العراق المتوفين كنتيجة مباشرة لاستمرار الحصار الظالم على شعب العراق وبشكل خاص على أطفاله، نبعث إليكم بهذه البرقية لنعبر عن حزننا واستنكارنا الشديدن لهذا القتل الجماعى لأطفال العراق .. وما هذه الأجساد البريئة التى نشيعها هذا اليوم من أطفالنا، إلا جزءا من آلاف الضحايا الذين سقطوا خلال سنوت الحصار ومازال الوضع يتفاقم سوءا بسبب إستمرار الحصار الجائر الذى نحمل الإدارة الأمريكية المسئولية الكاملة على إستمراره وإطالته خاصة بعد أن أوفى العراق بكامل التزاماته بموجب قرارات مجلس الأمن ذات الصلة وبعد أن فقد الحصار كل مسوغاته السياسية والقانونية وتحول إلى أداة إبادة جماعية وخاصة ضد أطفال العراق الأبرياء.

إننا نناشد المجتمع الدولى من خلالكم أن يرفع صوته عاليا لإيقاف جريمة الإبادة الجماعية هذه ضد أطفالنا .. ونأمل قيامكم بالعمل

❖ أنظر الملحق

الانسـانى الملائم الذى تمليه عليكم مسئوليات منصبكم الدولى الرفيع دفاعا عن حقوق الإنسان والشعوب المظلومة ضحية الحصار اللاإنسـانى، وبانتظار إجـراءاتكم العـاجلة لمعـالجـة هذا الوضع الإنسـانى المتدهور الخطر بحق أطفـال العـراق لوضـع حـد لقـتـلهم الجماعى اليومى خلافا لكافة الأعراف والمواثيق الدولية والإنسانية ولكافة تعاليم الأديان السماوية فى هذا الخصوص، وما أطفالنا الذين نشيعهم اليوم إلا صرخة حزن إنسانية وغصة ألم عميق وتنتظر من سيادتكم التحرك السريع والفاعل لايقاف هذا الدمار المتواصل والموت اليومى لأحباب الله أطفال العراق الأبرياء الذين هم جـزء من أطفال العالم ومستقبل الإنسانية، فالدفاع عن أطفال العراق فى هده المرحلة بالذات هو دفاع عن أطفال الانسانية .

وتقبلوا فائق الاحترام

ذوى المتوفين

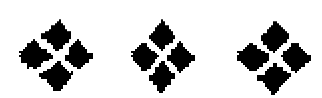
(إنتهت المذكرة)

وبعد أن سلم د. الشاوى هذه المذكرة التى تناشد المجتمع الدولى لايقاف جريمة الإبادة الجماعية ضد شعب العراق .. أخذ موكب الموت يبعد عن عينى تاركا خلفه مساحة من حزن أخذ يغمرنى بينما أنا مازلت واقفة أراقب وجه هذا المسئول الأجنبى وقد سافرت عيناه مع الموكب الرهيب .. كان المسئول يقول بنبرات صوت حزين: هذا منظر لايحتاج إلى وصف وأنا والموظفون هنا حزينون لهذا المشهد وحزننا هو جزء مما يحسه الأباء والأمهات!

قلت لنفسى : إذن الكل يحس .. الكل يشجب، الكل يندد إلا وزيرة الخارجية الأمريكية «أولبرايت» العجوز اليهودية التى تمثل أكبر دولة تعمل على رعاية حقوق الإنسان !! أولبرايت وحدها لايندى لها جبين لهذا المشهد ولايرق لها قلب لأنات طفل يحتضر .. وبكل بجاحة وصراحة تعلنها قائلة : أنا غير نادمة على مايحدث فى العراق!! يالها من إمرأة قاسية القلب .. من أين لها

بهذه القسوة ؟.. هل أنبأها العراف أن موتها سيكون على يد طفل عراقى فراحت تقتل كل أطفال العراق بلا رحمة؟ كما فعل «فرعون» مصر عندما أنبأه العراف أن زوال ملكه سيكون على يد طفل فى طريقه إلى الحياة فأمر بقتل كل طفل يولد حديثا !

إذا كان الأمر كذلك مع أولبرايت، فهذه المذكرة التى أرسل بها آباء وأمهات الأطفال المتوفين إلى مجلس الأمن لن تجدى .. فأمريكا تستخدم حق «الفيتو» فى الضغط على مجلس الأمن من أجل إطالة أمد الحصار على شعب العراق .. إذن فهؤلاء الأطفال الثلاثة والسبعون الذين تحلق أرواحهم البريئة فى سماء بغداد اليوم لن يكونوا أخر ضحايا الحصار .. كما أنهم لم يكونوا أولهم .. فخلال الأيام القليلة التى سبقت وصولى بغداد كانت هناك جنازة لـ ٥٠ طفلا وقبلها بأيام كانت هناك جنازة أخرى لـ ٤٥ طفلا .. وهذا العدد من الأطفال الذى يشيعه العراق بشكل جماعى ـ كوثيقة على مايحدث لأطفال العراق تحت وطأة الحصار ـ لايمثل، ومن واقع الجداول الإحصائية ثلث حالات وفيات الأطفال يوميا فى ظل الحصار حيث تودع العراق يوميا أكثر من ١٥٠ طفلا يموتون لأنهم حرموا من أدنى حقوق الإنسانية وهو حق الغذاء والدواء .. أى حقهم فى الحياة❖.



مضى وقت طويل قبل أن أجرؤ على مواصلة طريقى إلى حيث تقف سيارة الوفود فى إنتظار عودة من يشارك فى تشييع جنازة أطفال العراق من أعضاء الوفد المصرى .. قلت لنفسى: ماذا لو أصبحت أنا جزءا من هذا الزحام فى ذلك اليوم العصيب .. ماذا لو حملتنى قدماى فأمشى بين طرقات بغداد وشوارعها، أطرق أبواب بيوتها وأواصل حديثى مع أهلها وأطفالها ؟؟.. لم أنتظر حتى أحسم أمرى .. فقد كنت بالفعل أسير فى إتجاه السيارة لأطلب من «أبو ياسر» أن يحملنى فى رحلة أجوب فيها شوارع وحوارى بغداد.

❖ أنظر الملحق

من خلف زجاج السيارة، وعلى المدى البعيد لمحت شمس العراق وقد بدأت تطل على إستحياء من خلف السحب الرمادية لأرى كل بغداد يلفها اللون الأبيض الضبابى بينما عادت المبانى العراقية البيضاء تفتح أبوابها ونوافذها من جديد لكل شعاع أبيض ينقشع معه كل سواد تبقى من هذا اليوم الحزين، فالعراق رغم الجوع والموت مازال مصرا على ارتداء اللون الأبيض .. فاللون الأسود لون الحداد يرفضه العراقيون بشدة معلنين أن الحداد يكون فقط على الموتى . وإذا كان الأطفال ـ أحباب الله ـ يموتون كل يوم فإن فالعراق لن يموت .. العراق صامد ..

أمام بناية ضخمة حديثة توقف أبو ياسر بالسيارة قائلا : هذا هو برج صدام للتحدى والصمود، لأنه أعلى برج فى منطقة الشرق الأوسط كلها، وقد تم افتتاحه منذ شهور قليلة.

أسأله: فى ظل الحصار والأزمة الاقتصادية الطاحنة.. ويستطيع العراق أن يبنى مثل هذا البرج ؟؟؟

يقول أبو ياسر : نعم ـ وليش لا ـ إحنا العراقيون اللى بنيناه بأيدنا وفى نفس المكان اللى قصفت فيه أمريكا برج العراق القديم !

وفى مواجهة برج التحدى والصمود، وعلى ربوة عالية شيد تمثال ضخم للرئيس العراقى صدام حسين.. وحول التمثال استقرت أشلاء من جسد الصاروخ الأمريكى - الذى قصف البرج القديم - كشاهد على حالة الدمار التى أحدثها القصف الجوى لدول الحلفاء على العراق.. البلد الصغير❖ أما تحت قدمى التمثال الضخم لصدام حسين فقد رقدت صور منحوتة من قطع من الحجر لوجوه «بوش» و«أولبرايت» و«دُب الصحراء الشهير» !

❖ هاجمت أمريكا والدول الحلفاء في اثنين وأربعين يوما، بطائرتهم وصواريخهم أهدافا مدنية واقتصادية وصحية وتعليمية وبيئية في طول العراق وعرضه، ولم تستثن حتي المساجد والكنائس والمستشفيات والمدارس ودور رعاية العجزة والمعوقين. كما دمرت مصادر الطاقة الكهربائية ومحطات تصريف المياه الثقيلة وخدمات البلدية فضلا عن تدميرها المتعمد لمعظم المؤسسات الزراعية والصناعية لتترك البلاد عرضة لانتشار الأوبئة والمجاعة والعودة إلي عصور التأخر والانحطاط (الدمار - ملف وثائقي عن حجم الدمار الذي خلفه العدوان الغاشم علي العراق - وزارة الثقافة والإعلام العراقية - دائرة الإعلام)

من خلف زجاج نافذة السيارة أنظر إلى الأفق البعيد أسأل نفسى:

هل هناك علاقة بين بغداد التى أجوب شوارعها الآن وبين ما حدث فى المدينة الصغيرة «رأس البر» التى هُجّرت إليها أنا وأسرتى بعد نكسة ١٩٦٧؟..

نفس السؤال الذى سأله صديقى «عاطف حزين» الصحفى البورسعيدى فى كتابه (لا سلام ولا كلام) والذى يحكى فيه عن غلطة عمره، أو رحلته إلى إسرائيل فى مهمة صحفية.. نفس السؤال أراه يلح علىّ الآن والإجابة تقريباً واحدة.. نعم هناك علاقة، وإذا كان عاطف حزين أكثر تحديداً وقال إن العلاقة هى «إسرائيل» فأنا سأكون أكثر شمولية وأقول إنها «أمريكا»..

وما الفرق بين أمريكا وإسرائيل؟..

فى بغداد حاصرت أمريكا الشعب، منعت عنه الغذاء والدواء ومنعت عن أطفاله الحليب..!

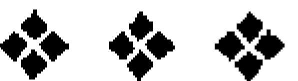
وفى «رأس البر» حاصرتنا إسرائيل - طفل أمريكا المدلل - بالغارات.. إسرائيل حرمتنى من حضن أبى وأنا لم أزل بعدُ طفلة صغيرة.. إسرائيل منعت عنى الحليب واللحم حينما كان مصروف أمى لا يكفى لشرائهما.. إسرائيل حرمتنى من فرحتى بثوب العيد الجديد كما حرمتنى من الإحساس بالعيد.. فى العراق ينتظرون اللجان الشعبية بالغذاء والدواء والحليب للأطفال.. وأنا كنت أنتظر «جنيه واحد» يمنحه الاتحاد الاشتراكى للطلبة كل عام لتشترى أمى لى به حذاءاً جديداً للمدرسة!

يا صديقى عاطف.. أمريكا هى إسرائيل، وإسرائيل هى أمريكا.. أمريكا تحاصر العراق من أجل عيون إسرائيل، هى تسمح لإسرائيل بامتلاك كل أنواع أسلحة الدمار الشامل وتحرّمها على العرب حماية لإسرائيل!!

❖ ❖ ❖

مازالت السيارة تخترق بى شوارع بغداد، الشمس عادت لتختبىء من جديد خلف كتل السحاب الرمادية.. حبات المطر تغطى زجاج نافذة السيارة، تمتد أذرع البرد اللعين لتقرص العظام من جسدى المتعب.. مازال اللون الأبيض الضبابى يلف المدينة، المطر يحتدم فيغسل معه كل الأبنية الشامخة.. أتعجب: أين حجم الدمار للمنشآت العراقية والذى رأيته فى كل هذه الصور التى تغطى جدران «متحف صدام للصمود»؟

إنها الروح العراقية التى تبنى وتعمر بأجساد متعبة واهية يا أستاذة - يقول السائق - الحصار طال كل شىء فى الجسد العراقى، ولكنه لم يطل بعد الروح العراقية!



عدت لأنظر حولى، وعلى مدى الأفق البعيد أتلمس بالكاد آثار الدمار فى شوارع بغداد، فعراق نهاية القرن العشرين بما حقق من تقدم تكنولوجى وبما يمتلك من ثروات طبيعية وبشرية، العراق الذى حقق أعلى درجات النمو وقضى على محو الأمية تماما وفتح مطابعه ليغذى الثقافة العربية بأمهات الكتب، ذلك العراق لم يَرُق للقوى العظمى ولا للصهيونية أن تراه يخرج ظافراً ومنتصراً من حرب ضروس استمرت ثمانى سنوات مع النظام الإيرانى عملت القوى الاستعمارية ما فى وسعها لاشعال نارها كى تستنفذ طاقة العراق وقوته وتعطل بناءه وتسلب رخاءه، كما عمدت هذه القوى إلى شن حملات مكثفة تضمنت العديد من صور التهديدات والدعاية المضادة والتى لم تكن فى حقيقة الأمر إلا مقدمة لإجراءات عدوانية فعلية ضد الشعب العراقى، بدأت بفرض حظر على نقل التكنولوجيا إلى العراق عام ١٩٨٩، ثم بقرار أمريكا بمنع تصدير بعض المواد الغذائية فى مارس ١٩٩٠، ثم بقرار الحظر الشامل فى أغسطس ١٩٩٠ - وهو القرار الذى حرم العراق

من أن يستورد أية سلعة أو بضاعة سواء كانت غذائية أم دوائية ـ كذلك مُنع العراق من استيراد كل ما يتصل بتنمية ورفاهية الحياة فى العراق ومن أن يصدر ثرواته أو يستخدم أمواله المودعة فى البنوك فى الخارج..

وسرعان ما اتخذ هذا المخطط اللاإنسانى المبيت بُعداً عسكرياً فى ١٧ يناير ١٩٩١ بهجوم شامل ووحشى ومكثف لم يشهد له التاريخ مثيلا على بلد صغير كالعراق، إذ سخرت له ثلاثون دولة أو يزيد كل قدراتها وزجت فيه ببضع آلاف من أحدث الطائرات والصواريخ والسفن الحربية والدبابات وأكثر من نصف مليون جندى.

كان الهدف الظاهر لهذا العدوان الوحشى هو إخراج القوات العراقية من الكويت، إلا أن الهدف الباطن كان تدمير بنية العراق التحتية وتدمير الشعب العراقى وإيقاف تقدمه العلمى والحضارى الذى أضحى يضارع المستوى الذى بلغته بعض البلدان المتقدمة فى المجالات الصحية والمعيشية والخدمية على حد وصف الأمير «صدر الدين أغاخان» المندوب التنفيذى للأمين العام للأمم المتحدة الذى ترأس لجنة دولية لتقويم الوضع فى العراق فى أعقاب الحرب❖.

❖ المرجع: الدمار – ملف وثائقي عن حجم الدمار الذي خلفه العدوان ص (٥)

ـ داخل المطعم بفندق الرشيد، وعلى العشاء.. كان أعضاء الوفد الشعبى المصرى قد اجتمعوا لتحديد موعد مغادرة بغداد عائدين إلى القاهرة.. وانقسمت الآراء، البعض رأى أن نمد إقامتنا يوما آخر، والبعض الآخر قال: إننا أنجزنا مهمتنا وعلينا بالرحيل إلى القاهرة غداً لإكمال بقية المهمة وإطلاع الرأى العام المصرى والعربى على الأوضاع داخل العراق.

أما أنا فبينى وبين نفسى كنت أتمنى أن تمتد بى الإقامة أياماً وأياماً أخرى داخل بغداد، ولكن «نصير شمة» الذى انضم إلى جلستنا أخيراً جاء ليحسم الموقف قائلا :

سنغادر بغداد غداً فى المساء.. وعليكم بحزم حقائبكم، فالسيارة ستكون جاهزة أمام باب الفندق فى السادسة مساء.

البعض اعترض على نبرة نصير فى الحوار.. واعتبره رأياً ديكتاتورياً، ولكن الكاتب عبدالعظيم مناف الذى دخل فى حوار جانبى مع نصير عاد ليحاول اقناع الجميع بحتمية مغادرة بغداد غداً لظروف أمنية !!

داخل حجرتى بفندق الرشيد، كانت حقيبتى ـ التى ملأتها عن آخرها بالكتب والمجلات فى القاهرة لأهديها إلى أصدقائى فى العراق ترقد فارغة تماماً فيماعدا أشيائى الخاصة.. على عكس كل المرات التى قدمت فيها إلى العراق قبل الحصار.. حيث كنت أضطر لشراء أكثر من حقيبة، أملأها جميعاً بالهدايا لأصدقائى فى القاهرة.. فقد كانت الحكومة العراقية تساهم فى تدعيم السلع المستوردة حتى أصبحت الأسعار لا تقارن بمثيلاتها فى أى بلد آخر عربى كان أم أوروبى.

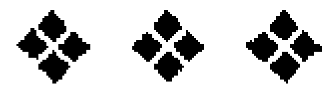
أما اليوم ومع فرض حظر الاستيراد على العراق وارتفاع الأسعار إلى هذا الحد الجنونى - بسبب فرق أسعار العملة بين فترتى ما قبل الحصار وما بعده - فإن الأسواق تبدو خالية تماما من السلع المستوردة فيماعدا ما يأتى به «القطط السمان» الذين يتكاثرون فى مثل هذه الظروف.. فالعراق رغم الجوع والمرض والموت يعانى أيضا من استغلال طبقة أغنياء الحروب والكوارث التى تتاجر بدماء البشر وحاجتهم، مستغلة الظروف فى ترويج السلع - خصوصا الغذائية التى يتم تهريبها عبر الحدود السورية والأردنية بشكل خاص.. لبيعها فى الأسواق العراقية بأسعار ربما لا يقدر عليها المواطن العراقى.. ولكنها الحاجة هى التى تدفع العراقيين لبيع كل ما يملكون من أثاث البيوت والملابس والمستلزمات الخاصة من أجل حفنة دينارات يسدون بها رمق أطفالهم الجوعى الصغار.. إنها لقمة العيش التى تدفع المثقف والفنان العراقى أن يفترش ناصية أحد الأرصفة بشارع المتنبى - ليبيع مكتبته الخاصة، ليصبح سعر أغلى وأثمن كتاب فيها لا يتعدى الدولارين !!

كيف يحدث ذلك.. سألت المخرج عزيز خيون وهو أحد المثقفين العراقيين والذى كان يرافقنى فى جولتى بشارع المتنبى فقال بصوته المسرحى «الناص» الذى يخرج من حنجرته متقطعا حزينا :

- نعم هذا هو الحال فى العراق اليوم.. وإلا ماذا تطلبين من المثقف كى لا يتنازل عن كرامته وكبريائه فى ظل أزمة الحصار الاقتصادية التى باع معها كل ما يملك حتى «عفش» بيته.. لم يعد أمامه - يا عزيزتى - إلا كتبه التى جمعها فى رحلة عمره لتصبح جزءاً من فكره وتاريخه ووعيه وكيانه.. وها هو يبيعها على الرصيف كى يسد رمق أطفاله بعد أن أصبح مرتبه من التدريس فى الجامعة لا يتعدى أربعة أو خمسة دولارات فى الشهر !!

ذهب عزيز خيون بعينيه بعيداً بامتداد شارع المتنبى ثم عاد ليقول : هذا الشارع كان فسحتنا نحن شباب المثقفين كل يوم «جمعة» نشترى منه - بكل ما ادخرناه - الكتب من الباعة الجائلين، حيث كان حلم كل واحد منا أن يمتلك مكتبة فى بيته، واليوم لم أعد أقوى على دخول هذا الشارع العتيق

بعد أن رأيت هذا المشهد وكأنه فصل من مسرحية تراچيدية.. لقد رأيت زميلى المثقف أستاذ الجامعة يقع على الأرض منهاراً يصرخ: دعوها تمشى من أمامى.. دعوها تمشى، واكتشفت أن التى كانت تقف أمامه لتشترى أحد كتبه الثمينة ما هى إلا تلميذته، وبمجرد أن رفعت رأسها لتسأله عن ثمن الكتاب وتعرف على وجهها، حتى انهارت قواه وسقط منهارا !!..



بعد تفكير ملأت حقيبتى بأكياس التمور العراقية اللذيذة وعلباً من حلوى «مَنّ السماء» المشهور به العراق، وعشرات الخطابات التى أرسلها بعض أصدقائى العراقيين إلى أصدقائهم وذويهم بالقاهرة، وكذلك بعض المقالات والقصص التى يريد أصحابها نشرها بالصحف أو المجلات المصرية.

وضعنا حقائبنا فى مخزن الشنط بالأتوبيس العراقى الذى سيقلنا إلى دمشق مباشرة.. لننطلق مودعين بغداد فى تمام الساعة الثامنة مساءً تاركين خلفنا مساحة من الموت الذى ينتظر العراقيين تحت وطأة الحصار اللعين وسط نظرات العراقيين المتوجسة والشاردة فى مستقبل مجهول لا يعلم معالمه إلا الله وحده.

المشهد داخل الأتوبيس كان مختلفا تماما أثناء عودتنا من العراق عنه عندما شددنا الرحيل إليها.. الكل صامت، شارد فيما رآه وسمعه فى العراق.. وحتى الذين يتكلمون تأتى نبرات صوتهم حزينة، وهم يجترون المشاهد المؤلمة التى شاهدناها فى مستشفيات وشوارع بغداد.

الصحراء بامتداد الأفق.. السعودية على يسارنا، وعلى حدودها يرقد جيش الحلفاء فى حالة تحفز، ها هى الأردن.. أما نحن فمتجهون شمالا إلى سوريا .. فى رحلة عودة كئيبة لا ندرى كيف ستغيب تفاصيلها المؤلمة عن خيالنا وقلوبنا.. إلى أن تنتصب لكرامتنا قامة ذات يوم، وبينما عند كذلك إذا بصوت المطرب العراقى كاظم الساهر ينطلق من راديو الأتوبيس يشدو :

آه.. آه.. آه يا عرب

يا أخي يا ابن العم.. يا أخي يا ابن العرب

عجبي.. عجبي كل العجب !!

ما الذي أبدل سيف الثائرين بحطام من قصب ؟

ما الذي باع اللسان العربي بلسان من خشب ؟

آه يا شعبي آه ....

آه يا عراق آه ...

عودُ على بدء

●●● بعدما أنزلوني، سمعت الرياح
في نواح طويل تسف النخيل،
والخطى وهى تنأى.
إذن فالجراح والصليب الذى
سمرونى عليه طول الأصيل لم
تمتن.

■ ظل كلينتـون يهـدد بضـرب العـراق منذ يناير ١٩٩٨، إذا لم يسـتـسلم لقـرارات مجلس الأمن بتفتيش كل القصـور الرئاسيـة دون قيد أو شـرط، ثم نفـذ كلينتـون ضـربتـه الغـاشـمـة للعـراق فـيـمـا أطلق عليـه عـمليـة «ثعلب الصـحـراء» فـى ديسـمبـر ١٩٩٨ بدعـوى تهـرب العـراق من الوفـاء بالتـزامـاتـه الدوليـة ـ وفـقـا لقـرارات مـجلس الأمن ـ ومـا بين ترقب الموت والموت ترقبـا كانت رحلتى إلى العراق التى سجلت تفاصيلهما فوق سطور هذا الكتاب.

وإذا كنت لم أسـتطع ـ وأنا فـى طريقى إلـى بغـداد لرؤية وجـوه الأصـدقـاء والأحباء والأطفال المحاصـرين منذ ثمـانى سنوات ـ أن أتخيل الصـورة التى يمكن أن يكون عليـهـا حـال شعب يعـانى الجوع والمرض تحت وطأة الحصـار اللعين، فإننى وفى طريق العودة من بغداد كانت الصـورة قد انطبعت كالوشم فى ذهنى.. وهى صـورة لـم أكن أسـتطيع أن أتصـورها مـهـمـا بلغت بى درجة الخيال :

ـ انطبـعت فى ذهنى صـورة لمواطن عـراقى كان يومـا «مدللا» بثـروات بلاده ـ حتى بعد حرب الخليج الأولى ـ وهو يبيع إحدى كليتيه لأحد الأثرياء العرب مقابل ألفى دولار يضمن بهما قوت أولاده، على الأقل عامين.

ـ انطبـعت فى ذهني صـورة للعـراق الذى علم الإنسـان «الحـرف» وقـد أخـذ

مثقفيه يفترشون الأرصفة بأمهات الكتب التى نقلوها من مكتبات منازلهم يبيعونها من أجل حفنة دينارات يسدون بها رمق أطفالهم الجوعى.

- إنطبعت فى ذهنى صورة أم عراقية تحمل بقايا طفلها فى كيس نايلون يتدلى من يدها، تسير به فى الطريق، تبحث عن مكان منعزل لتدفنه فيه بعد أن أكله غول المرض والجوع.

- وفى مساء الأربعاء الحزين وأنا واقفة أراقب في ذعر شاشة التليفزيون وهى تبث على الهواء مباشرة اغتيال شعب العراق بالصواريخ والقنابل الأمريكية، كانت هذه الصور وغيرها تتزاحم حول رأسى وتنخر داخل فكرى، أراها أمام عينى تنطق بتفاصيل الفصل الجديد من المأساة.

فى هذه اللحظات وبينما صوت المراسلة الأمريكية لشبكة «Cnn» تصف الصواريخ الأمريكية - وهى تضئ سماء بغداد مغتصبة سكون الليل فى رحلتها نحو البشر الآمنين - وكأنها تصف مباراة «بايتة» يعرف المشاهدون نتيجتها مسبقا، فى هذه اللحظات، كنت أشعر إننى أرى هلال أرض أعرفها.. وفناء شعب أصبح فى ذاكرتى كالوشم.

فهذا مبنى الإذاعة والتليفزيون العراقية، أعرفه.. دخلته وتجولت بين أروقته التى مازالت تحمل آثار الدمار منذ حرب الخليج الثانية.. قاسمت الشباب هناك الحلم بمولد القناة الفضائية العراقية تخترق سماء الحصار.. رأيتهم يعملون ويصرون على تحقيق الحلم فى ظرف يفوق حد الاستحالة.. وها هو الصاروخ المأجور لا يمهلهم.. ها هو قد أطاح بهم وبحلمهم.

وهذه مستشفى صدام التعليمى.. دخلتها، تألمت لألم الأطفال فوق الأسرة غير البيضاء.. رأيت عيونهم الشاردة فى انتظار كوب حليب أو قرص أسبرين يخفف آلامهم.. وها هو الصاروخ يطيح برؤوسهم الصغيرة ويحول الحوائط من حولهم إلى ذرات تراب تصلح لدفنهم.

ها هو فندق «الرشيد» الذى ضمنى أيام وأيام بين جدرانه.. احتضن بحنان رائع غربتى وابتعادى عن وحيدى «حاتم» ومن إحدى نوافذه كنت أنظر إلى

سماء بغداد وأتساءل: هل حقا يمكن أن يقوموا بضرب العراق ثانية ؟.. وها هى الضربة الفاجرة تطيح بجدرانه الحنون.

وهذا مبنى وزارة العمل والشئون الاجتماعية.. دخلته لأرى كيف يعيش الأطفال الذين يولدون داخل السجون العراقية.. كيف يواجهون حصار المكان، وحصار الوطن.. وها هو القصف الأمريكى البريطانى يطيح به ويدك الأرض من تحتها دكا تاركا خلفه حفرة يتعدى عمقها الثمانية أمتار.. فمن من الأطفال الذين رزيتهم يرقد فى تلك الحفرة الآن ؟

استباحت أمريكا وبريطانيا دماء شعب العراق فداء «لخطيئة» كلينتون الذى كان ينتظر محاكمته غداة الهجوم على العراق فى قضية تحرشه الجنسى بمونيكا لوينسكى.. ظلت الصواريخ والقنابل الأمريكية تقصف المنشآت العراقية والشوارع والبيوت طوال أربعة أيام متواصلة، لدرجة أن أحد النواب الجمهوريين فى الكونجرس الأمريكى علق على تلك الضربة الهمجية قائلا: ترى كم جندى أمريكى وكم طفل عراقى برئ يموتون من أجل أن يخفى كلينتون نفسه عن العدالة ؟

بل لقد بلغ الأمر إلى حد أن توجهت دولة كبرى - أو كانت - مثل روسيا بنداء رسمى إلى مونيكا لوينسكى عن طريق «الدوما» الروسى أن تساعد على وقف الهجوم الأمريكى باتخاذ إجراءات مناسبة تكفل عودتها إلى البيت الأبيض لكبح جماح شبق الرئيس كلينتون الذى كان يعد العدة لضرب العراق بعد أن أمر صدام حسين بطرد لجنة التفتيش - كما أعلنت وزارة الدفاع الأمريكية - ولكنه كان يتخير الوقت المناسب، وليس هناك أنسب من هذا التوقيت الذي نفذ فيه عمليته الوحشية.

لقد استطاع كلينتون أن يضرب بهذه الضربة الطائشة عصفورين بحجر واحد، وإلا كيف كان سيغطى على فشله فى تحقيق السلام بعد أن خذله نتنياهو أثناء زيارته إلى إسرائيل ومناطق الحكم الذاتى ؟

وكيف كان سيغطى على موضوع الحجر على شخصه، تلك الفضيحة التى ناقشتها اللجنة القانونية فى مجلس النواب الأمريكى.

أما العصفور البرئ والذى راح ضحية فشل وشذوذ الرئيس الأمريكى فكان هو العراق.. ليصبح ما حدث للعراق تحت وطأة تلك الضربة للعالم العربى كله.. خاصة وأن كلينتون صاحب «السوابق» الأخلاقية قد أخذ يطل برأسه من الشاشة الصغيرة من حين لآخر بابتسامة الثعلب ليشرح للعالم لماذا كانت الضربة.. مدعيا أن الهدف من الغارات هو إضعاف قدرة العراق على تطوير وإنتاج أسلحة الدمار الشامل وإضافع قدرته على تهديد جيرانه.. ولم ينس كلينتون أن ينهى حديثه بعبارة «رمضان كريم» !! فأى إذلال للعرب والمسلمين أكثر من ذلك.

ثم يأتى «وليام كوهين» وزير الدفاع الأمريكى ليوسع من دائرة إذلالنا وإنتكاستنا وهو يعلن فى مؤتمر صحفي عقد فى وزارة الدفاع فى نفس توقيت توجيه الضربات إننا سنستمر فى هذه المهمة إلى حين تحقيق أهدافها مؤكدا أن الرئيس كلينتون «متأثر للغاية» لأن الهجمات جاءت مع حلول «شهر رمضان».. لكنه لا بأس من أن تتواصل الضربة خلال الشهر الكريم !! ثم يضيف كوهين بكل وقاحة قائلا: نحن نعلم أن الصيام فرض دينى على المسلمين إلا أننا عازمون على مواصلة مهمتنا إلى حين إنجازها.

وبعد أن أنجزت أمريكا وبريطانيا مهمتها وتحقق هدفها من الضربة ليس لإضعاف قدرة العراق على تطوير وإنتاج أسلحة الدمار الشامل وإضعاف قدرة صدام حسين على تهديد جيرانه كما ادعى كلينتون ولكن هدف إذلال أمة عربية كاملة وتدمير شعب عربى مسلم، وقتل الأطفال والأبرياء حيث لم يسمع أحد عن تدمير مصنع لإنتاج الأسلحة الكيماوية أو تفجير معمل للأسلحة البيولوچية أو تحطيم عدد من الصواريخ وإنما كل ما شاهدناه على شاشة الفضائيات من بث مباشر من العراق، كان صواريخ من طراز «توماهوك» تنقض على المستشفيات والأحياء السكنية ومؤسسات لرعاية المسنين فتحولها إلى أنقاض وتحول البشر داخلها إلى أشلاء أو معوقين.

خرج علينا الجنرال «أنطونى زينى» القائد الميدانى للقوات الأمريكية البريطانية ليعطى تقويما شاملا لعملية «ثعلب الصحراء» فقال بكل فخر : «إن العملية دمرت (٧٤) هدفا تدميرا شاملا و«١١» هدفا بصورة جزئية من

بين (١٠٦) أهداف حددتها واشنطن ولندن بدقة !

ثم تابع الچنرال أنطونى حديثه بهدوء وبنظرة عين خلت من أى تعبير وكأنه يتحدث عن عملية إبادة حشرات ضارة فى أحد الحقول: إن الصواريخ والقنابل البريطانية الأمريكية حولت ثكنات تابعة للحرس الجمهورى العراقى ومراكز للقيادة والتحكم وأهدافا أخرى (!!) إلى أنقاض.

وراح أنطونى يعدد العناصر التى شاركت فى عملية ثعلب الصحراء بأنها ضمت أكثر من (٣٠) ألف جندى بصورة مباشرة و(١٠) آلاف جندى من خلال مهام الإسناد والمعاونة في أنحاء العالم، و(٣٠٠) طائرة نفذت أكثر من «٦٠٠» طلعة جوية خلال أربعة أيام من العمليات بالإضافة إلى «٤٠» قطعة بحرية.

ولم ينس أنطونى أن يسخر من ضحيته فتهكم على بغداد حين أعلنت عن خروجها منتصرة خلال المواجهة الأخيرة، مؤكدا على الانتصار الساحق التى حققته واشنطن وبريطانيا، والدليل كما يؤكد الچنرال هو عودة جميع الطائرات والطيارين سالمين إلى قواعدهم بعد تحقيق أهدافهم لدرجة أن كوهين وزير الدفاع الأمريكى أمر بزيادة مرتبات العسكريين من الأمريكيين مكفافأة لأدائهم البارع فى عملية ضرب العراق وسحق أرواح البشر الآمنين.

أما كلينتون فلم يتوقف عن هذا الحد من استفزاز لمشاعر المسلمين والعرب، فبعد أن غسل يديه من دم العراقيين راح تتابعه كاميرات التليفزيون وعدسات المصورين - يجوب الأسواق الأمريكية ليتسوق هدايا أعياد الميلاد. وبينما هو يتبادل عبارات التهنئة بالعام الجديد، كان العراقيون فى «دار السلام» يجمعون جثث ضحاياهم من الشيوخ والنساء والأطفال التى لم تجف بعد دمائهم، ودموع ذويهم.

لقد كان المشهد متباينا ومختلفا فى البيت الأبيض عنه فى دار السلام.. فبينما امتلأت أروقة البيت الأبيض بأشجار أعياد الميلاد والزينة (ميلاد السيد المسيح الذى يدعو إلى السلام على الأرض)(!!) كانت الصواريخ الأمريكية قد حطمت فوانيس رمضان فى يد أطفال العراق وأطاحت

برؤوسهم الصغيرة بعيدا عن أجسادهم.

إذا كنت منذ شهور قليلة قد تركت فى بغداد من ماتوا من ينتظرون الموت الذى جاءهم سريعا على يد أمريكا وبريطانيا. فإننى حتى كتابة هذه السطور لست متأكدة من زن الضربة التى وجهها أمريكا وبريطانيا هى الضربة الأخيرة.. فالناس فى العراق مازالوا حتى الآن يترقبون الموت فى كل لحظة !!

مأساة العراق..
بالصور والأرقام

●●● أما حملت إليك الريح عبر سكينة الليل بكاء حفيدتيك من الطوي وحفيدك الجوعان ؟ لقد جعنا وفي صمت حملنا الجوع والحرمان، ويهتك سرنا الأطفال ينتصبون من ويل أفي الوطن الذي أواك جوع ؟

■ انطلقت طائرات دول الحلفــاء فى يوم ١٧ ينـاير ١٩٩١، ولمدة ٤٣ يومــا راحت تقصف المدن العراقية بوحشية لم تعرفها الحروب البشرية من قبل، إذ لم تميز بين مرفق عسكرى وآخر مدنى، فقد ألقت بصـواريخها وقنابل حقدها على كل ما يمت إلى نهضة العـراق بد. لة، مستهدفة تدمير بنيته الاقتصادية والصناعية وتحطيم منجزاته العلمية والحضارية.

بل لقد استهدف المعتدون خطوط الاتصالات والمواصلات ومحطات الماء والكهرباء والطاقة، ودمروا المئات من المصانع ودور السكن والمساجد والكنائس، وحطموا الآلاف من المدارس والعديد من الأسواق والمحال التجارية والمستشفيات ومعامل الأغذية والأدوية وحليب الأطفال، حيث أغارت الطائرات على مصنع حليب الأطفال فى منطقة أبى غريب أيام ٢٠، ٢١ ، ٢٢ ، من يناير فدُمر المعمل تدميراً كاملاً، كما التهمت النيران الحليب المجفف فى مخازنه.

وقد تجلت على نحو مأسوى آثار تدمير هذا المعمل فى أطفال العراق وعلى نحو مضاعف فى ظل الحصار الاقتصادى الذى فُرض منذ أواسط شهر آب «أغسطس» ١٩٩٠. فسجلت معدلات الوفاة بين الأطفال حديثى الولادة ارتفاعاً كبيراً إذ قفز معدل الوفيات إلى أكثر من ٦٧ فى الألف بعد أن كانت هذه المعدلات قد إنخفضت إلى أقل من ٢٧ فى الألف، وهو المعدل الذى

تصبو منظمة رعاية الطفولة الدولية إلى تحقيقه فى البلدان النامية ومتوسطة النمو.

أكثر من ١٠٠ ألف غارة جوية شهدتها الأراضى العراقية ـ أى بمعدل غارة كل نصف دقيقة ـ ألقت خلالها قوات التحالف بما يقرب من ١٠٠ ألف طن من المتفجرات.. أى ما يعادل سبعة أضعاف القنبلة الذرية التى ألقاها الأمريكان على مدينة هيروشيما اليابانية فى الحرب العالمية الثانية❖.

لقد ذكر تقرير لجنة مراقبة حقوق الإنسان فى نيويورك أن الأعمال العسكرية ولاسيما العمليات الجوية، تتناقض مع اللغة الطنانة لقوات التحالف بصدد العناية التى أولتها هذه القوات لمسألة عدم قصف أماكن تجمع المدنيين ومنشآتهم خلال تنفيذ العمليات الجوية..

وأشار التقرير فى معرض دراسة وسائل وأساليب الهجوم، وموقف القانون الدولى منها، إلى أن طائرات قوات التحالف قد ألقت قنابلها خلال النهار، مودية بحياة المئات ودون مبرر، فى هجوم وقع بعد منتصف النهار على جسر فى مدينة الناصرية جنوب العراق.

ولكى نتعرف على قدر الخسائر التى أُلحقت بالبنية التحتية للاقتصاد العراقى، يكفى أن نشير إلى تقرير السيد صدر الدين أغاخان - الذى أكد فيه❖ على أن العراق يحتاج إلى (١٢) مليار دولار أمريكى لاسترجاع قدرته على انتاج معدلات الطاقة الكهربائية نفسها التى كانت قبل ١٧ يناير ١٩٩١ و(٦) مليارات دولار فى قطاع النفط و(٤٥٠) مليون دولار لصيانة شبكات المياه والصرف الصحى لتدبير (خُمس) معدل الخدمات السابقة فى هذا القطاع و(٢ر٤٦) مليار لسد الاحتياجات الغذائية و(٥٠٠) مليون دولار لتغطية الواردات الصحية لمدة عام واحد فقط.

(❖) المرجع.. كتاب أضرار العدوان علي المؤسسات التربوية - بغداد - وزارة التربية والتعليم ١٩٩٢.

(❖) المرجع. الملف الوثائقي عن حجم الدمار الذي خلفه العدوان علي العراق في بين السابع عشر من يناير ١٩٩١ ومارس ١٩٩١ علي المرافق المدنية والمنشآت الصحية ذات الطابع المدني للقوات المسلحة فقط، ولا يتناول الخسائر في الجانب العسكري البشرية منها والمادية.

لقد تعرض العراق إضافة إلى هذه الخسائر المادية إلى خسائر بشرية بلغ مجموعها (٨٢٤٣) شهيداً وجريحاً مدنياً استشهد من بينهم (٨٥٨) امرأة و(٢٠٧) من الأطفال دون سن الرابعة.

وفى الصفحات القادمة نستعرض بالصور والأرقام حجم الخسائر التى تعرض لها العراق سواءً فى البشر أو المنشآت العراقية على أثر عدوان دول الحلفاء فى يناير ١٩٩١ .

«إحصائيات»

العدد الكلى للوفيات بسبب الحصار الإقتصادى لأسباب منتخبة حسب الفترة الزمنية والفئة العمرية

الفترة الزمنية	الفئات العمرية أقل من (٥) سنة	أكثر من (٥) سنة	المجموع
١٩٨٩	٧١١٠	٢٠٢٢٤	٢٧٣٣٤

الفترة الزمنية	الفئات العمرية أقل من (٥) سنة	أكثر من (٥) سنة	المجموع
١٩٩٠	٨٩٠٣	٢٣٥٦١	٣٢٤٦٤
١٩٩١	٢٧٤٧٣	٥٨٤٦٩	٨٥٩٤٢
١٩٩٢	٤٦٩٣٣	٧٦٥٣٠	١٢٣٤٦٣
١٩٩٣	٤٩٧٦٢	٧٨٢٦١	١٢٨٠٢٣
١٩٩٤	٥٢٩٠٥	٨٠٧٧٦	١٣٣٦٨١
١٩٩٥	٥٥٨٢٣	٨٢٩٦١	١٣٨٧٨٤
١٩٩٦	٥٦٩٩٧	٨٣٢٨٤	١٤٠٢٨١
١٩٩٧	٥٨٨٤٥	٨٥٩٤٢	١٤٤٧٨٧
المجموع	٣٥٧٦٤١	٥٦٩٧٨٤	٩٢٧٤٢٥

الوفيات بسبب الحصار الإقتصادى للفئة العمرية أقل من (٥) سنوات لأسباب منتخبة		
الفترة الزمنية		المعدل الشهرى للوفيات
١٩٨٩		٥٩٣
١٩٩٠		٧٤٢
١٩٩١		٢٢٨٩
١٩٩٢		٣٩١١
١٩٩٣		٤١٤٧
١٩٩٤		٤٤٠٩
١٩٩٥		٤٦٥١
١٩٩٦		٤٧٥٠
١٩٩٧	كانون الثانى	٥٤٠٥
	شباط	٤٣٤٦
	آذار	٤٢٧١
	نيسان	٣٣٧٢
	ايار	٤٢٦١
	حزيران	٥٥١٢
	تموز	٦٤٦٦
	اب	٥٧٢٠
	ايلول	٤٥٧٨
	تشرين الاول	٤٩٢٢
	تشرين الثانى	٥١٩٩
	كانون الأول	٤٧٩٣
	المعدل الشهرى	٤٩٠٤

إعداد : قسم الإحصاء الصحى والحياتى

الوفيات بسبب الحصار الإقتصادى للفئة العمرية أكثر من (٥) سنوات لأسباب منتخبة		
الفترة الزمنيـة		المعدل الشهرى للوفيات
١٩٨٩		١٦٨٥
١٩٩٠		١٩٦٣
١٩٩١		٤٨٧٢
١٩٩٢		٦٣٧٧
١٩٩٣		٦٥٢٢
١٩٩٤		٦٧٣١
١٩٩٥		٦٩١٣
١٩٩٦		٦٩٤٠
١٩٩٧	كانون الثانى	٦٧١٢
	شباط	٧١٢٨
	آذار	٨٠١٢
	نيسان	٧٥١٧
	ايار	٨٠١٦
	حزيران	٧٤٣٩
	تموز	٥٧٨٧
	اب	٦٢٥٤
	ايلول	٧١٩٤
	تشرين الاول	٨١٢٤
	تشرين الثانى	٧٠٧٨
	كانون الأول	٦٦٨١
	المعدل الشهرى	٧١٦٢

إعداد : قسم الإحصاء الصحى والحياتى

أثر الحصار الاقتصادى على الحالة الغذائية للاطفال دون الخامسة من العمر

نوع الحالـــــــة	١٩٩٠		١٩٩١			١٩٩٢			١٩٩٣		
	العدد	المعدل الشهرى	العدد	المعدل الشهرى	عدد مرات الزيادة عن ١٩٩٠	العدد	المعدل الشهرى	عدد مرات الزيادة عن ١٩٩٠	العدد	المعدل الشهرى	عدد مرات الزيادة عن ١٩٩٠
نقص التغذية KWASHIORKOR	٤٨٥	٤١	١٢٧٩٦	١٠٦٦	٢٦,٣	١٣٧٤٤	١١٤٥	٢٧,٩	١٥١٢٨	١٢٦١	٣٠,٨
هزال بسبب سوء التغذية MARASMUS	٥١٩٣	٤٣٣	٩٦١٨٦	٨٠١٥	١٨,٥	١١١٤٧٧	٩٢٨٩	٢١,٤	١٣٩٣٤٦	١١٦١٢	٢٦,٨
أنواع أخرى من سوء التغذية (نقص الزلال ، السعرات ، الفيتامينات)	٩٦٨٠٩	٨٠٦٣	٩٤٧٩٧٤	٧٨٩٩٨	٩,٨	١١٢٣٣١٩	٩٣٦١٠	١١,٦	١٢٣٥٦٥٧	١٠٢٩٧١	١٢,٨
كافة الحالات	١٠٢٤٨٧	٨٥٤١	١٠٥٦٩٥٦	٨٨٠٧٩	١٠,٣	١٢٤٨٥٤٠	١٠٤٠٤٥	١٢,١	١٣٩٠١٣١	١١٥٨٤٤	١٣,٦

إعداد : قسم الإحصاء الصحى والحياتى

أثر الحصار الاقتصادى على الحالة الغذائية للاطفال دون الخامسة من العمر

نوع الحالة	١٩٩٤			١٩٩٥			١٩٩٦			١٩٩٧		
	العدد	المعدل الشهرى	عدد مرات الزيادة عن ١٩٩٠	العدد	المعدل الشهرى	عدد مرات الزيادة عن ١٩٩٠	العدد	المعدل الشهرى	عدد مرات الزيادة عن ١٩٩٠	العدد	المعدل الشهرى	عدد مرات الزيادة عن ١٩٩٠
نقص التغذية KWASHIORKOR	٢٠٩٧٥	١٧٤٨	٤٢,٦	٢٦٩٨٤	٢٢٤٩	٥٤,٨	٢٨١١١	٢٣٤٢	٥٧,١٢	٢٨٤٧٥	٢٣٧٣	٥٧,٨٨
هزال بسبب سوء التغذية MARASMUS	١٩٢٢٩٦	١٦٠٢٥	٣٧	٢٤٤٠٢٣	٢٠٣٣٥	٤٧	٢٤٧٣٠٢	٢٠٦٠٩	٤٧,٥٩	٢٥٣٤٨٣	٢١١٢٣	٤٨,٧٨
أنواع أخرى من سوء التغذية (نقص الزلال ، السعرات ، الفيتامينات)	١٥٧٦١٩٤	١٣١٣٤٩	١٦,٣	١٧٥٣٣٥٥	١٤٦١١٣	١٨,١	١٨٠٢١١٢	١٥٠١٧٦	١٨,٦٢	١٨٥٠٧٧١	١٥٤٢٣١	١٩,١٣
كافة الحالات	١٧٨٩٤٦٥	١٤٩١٢٢	١٧,٥	٢٠٢٤٣٦٢	١٦٨٦٩٧	١٩,٧	٢٠٧٧٥٢٥	١٧٣١٢٧	٢٠,٢٧	٢١٣٢٧٢٩	١٧٧٧٢٧	٢٠,٨١

إعداد : قسم الإحصاء الصحى والحياتى

النسبة المئوية للمواليد بوزن أقل من (٢,٥) كغم من مجموع المواليد الموزونين المسجلين فى المؤسسات الصحية خلال فترة الحصار الإقتصادى

الفترة الزمنية		المعدل الشهرى ٪
١٩٩٠		٤,٥
١٩٩١		١٠,٨
١٩٩٢		١٧,٦
١٩٩٣		١٩,٧
١٩٩٤		٢١,١
١٩٩٥		٢٢,٠٥
١٩٩٦		٢٢,٦٠
١٩٩٧	كانون الثانى	٢٣,٧
	شباط	٢٣,٥
	آذار	٢١,٣
	نيسان	٢٢
	ايار	٢٠,٧
	حزيران	٢٢,٦
	تموز	٢٣,٨
	اب	٢٢,٧
	ايلول	٢٣,٨
	تشرين الاول	٢٣,٤
	تشرين الثانى	٢٤,٠١
	كانون الأول	٢٤,٧
	المعدل السنوى	٢٣,٢

إعداد : قسم الإحصاء الصحى والحياتى

انخفضت العمليات الجراحية فى المستشفيات العراقية بنسبة (٣٠) بالمائة عن ماكانت عليه قبل الحصار، وأكدت ذلك إحصائيات وزارة الصحة والجدول التالى يوضح هذا الإنخفاض.

الفترة الزمنية		المعدل الشهرى	النسبة المئوية لانخفاض ١٩٨٩
١٩٨٩		١٥١٢٥	–
١٩٩٠		٨٦٦٨	٤٣-
١٩٩١		٦٥٠٧	٥٧-
١٩٩٢		٥٤٧٧	٦٣,٧-
١٩٩٣		٥٢٠٢	٦٥,٦-
١٩٩٤		٤٦٧٩	٦٩,١-
١٩٩٥		٤٤٩٢	٧٠,٣-
١٩٩٦		٤٣٧٠	٧٠,٨-
١٩٩٧	كانون الثانى	٣٨٧٦	٧٤,٤-
	شباط	٤٣٥٠	٧١,٢-
	آذار	٣٩٥٤	٧٣,٩-
	نيسان	٤٨٧٥	٦٧,٧-
	ايار	٤٥٢٥	٧٠,١-

نتيجة للظروف الصعبة التى خلفها الحصار الظالم ، فقد يضطر بعض الطلبة إلى ترك الدراسة من أجل العمل ، لتدبير لقمة العيش أو تركها لعدم توافر المال الكافى لإكمال التعليم ، أثر هذا الجانب على ازدياد عدد المتسربين من المدارس وخاصة فى سنوات الحصار الجائر .

والجدول التالى يوضح هذه الاعداد :

السنوات	اعداد التلاميذ والطلبة المتسربين					
	الابتدائية	المتوسطة	الاعدادية	المهنى	اعداد المعلمين	المجموع
١٩٩١-١٩٩٢	٩٣٧٥٠	٤٨٦٠٥	٢٢٢١	٣٠٧٧	١٣٢	١٤٧٧٨٥
١٩٩٢-١٩٩٣	٦٧٧٠٦	٥٢٧٣١	٤٠٨٥	٢٧٢٢	١٢٤	١٢٧٣٦٨
١٩٩٣-١٩٩٤	٧١٧٠٥	٤٩٣٧٤	٣٨٠٣	٢٣١٣	١٤٢	١٢٧٣٣٧
١٩٩٤-١٩٩٥	٨٦٤١٢	٣١٤٦٥	٤٠٧٩	٢٣٣٧	١٩١	١٢٤٤٨٤
١٩٩٥-١٩٩٦	٨٩٥٣١	٣٠٤٤١	١٠٨٩	٢١٥٠	١٦٤	١٢٣٣٧٥
المجموع	٤٠٩١٠٤	٢١٢٦١٦	١٢٥٧٧	١٢٥٩٩	٧٥٣	٦٥٠٣٤٩

جدول التالى يوضح الفرق بين أسعار بعض المواد الغذائية قبل فرض الحصار الإقتصادى والأسعار التى أصبحت عليها حتى ١٩٩٨/١/١ .

أسم المادة	معدل الأسعار قبل احصار تموز / ١٩٩٠		معدل الأسعار ك ٢ / ١٩٩٨		عدد مرات الزيادة
	فلس	دينار	فلس	دينار	
الطحين	٠٦٠	---	---	٢٧٥	٤٥٨٣
الرز	٢٤٠	---	---	٣٥٠	١٤٥٨
السكر	٢٠٠	---	---	٤٥٠	١٨٧٥
الشاى	---	٢	---	٣٠٠٠	١٥٠٠
الزيوت	٦٠٠	---	---	١٣٠٠	٢١٦٧
حليب الاطفال	١٦٠٠	---	---	١٠٠٠	٦٢٥

الملائكة تموت أيضاً



الكاميرا تحكى المأساة

الكاميرا تحكي المأساة



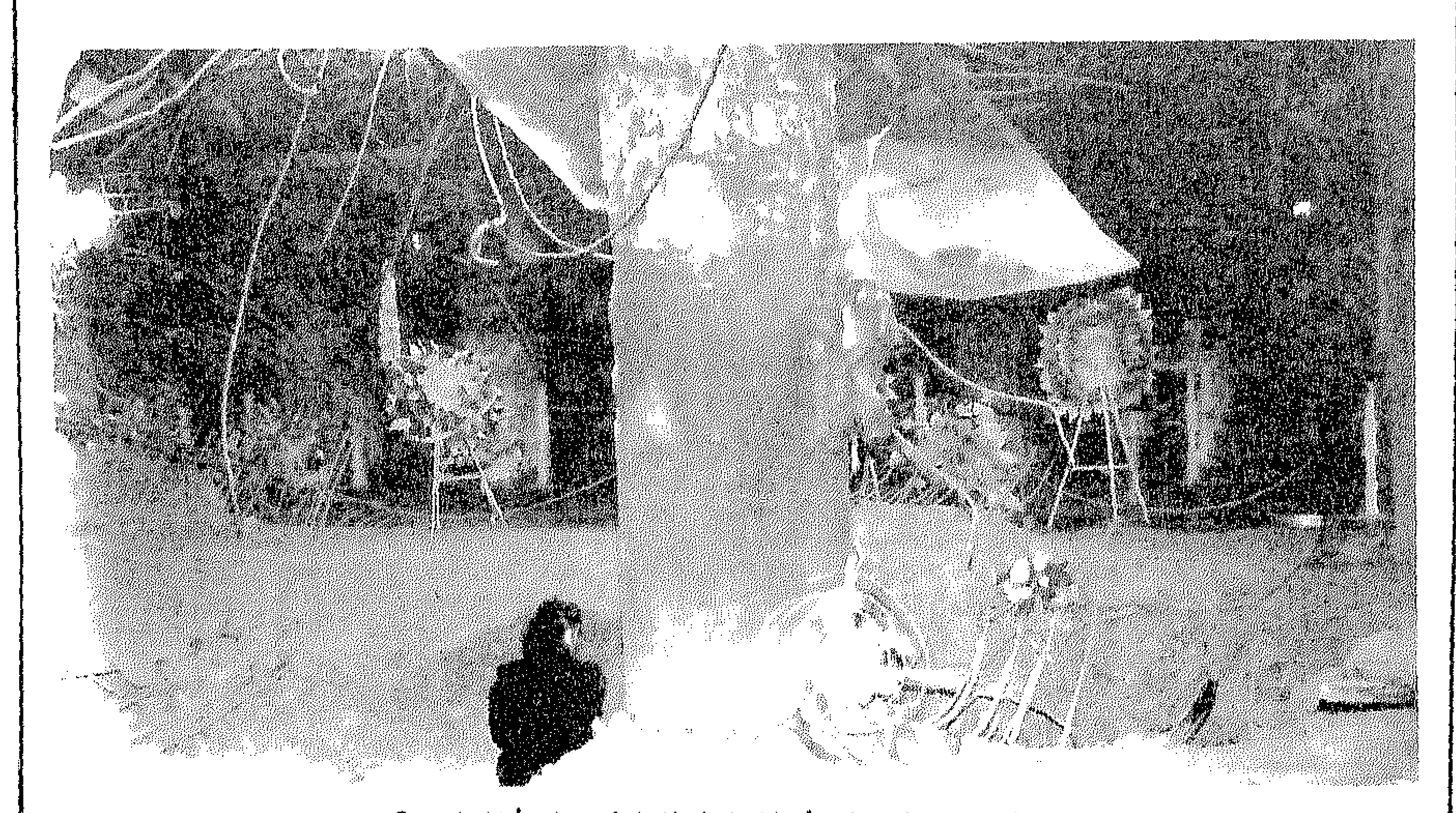
هل هناك أبشع من هذا .. ؟ !!

هكذا ينتظرون قرص أسبرين على أبواب المستشفيات

الكاميرا تحكي المأساة

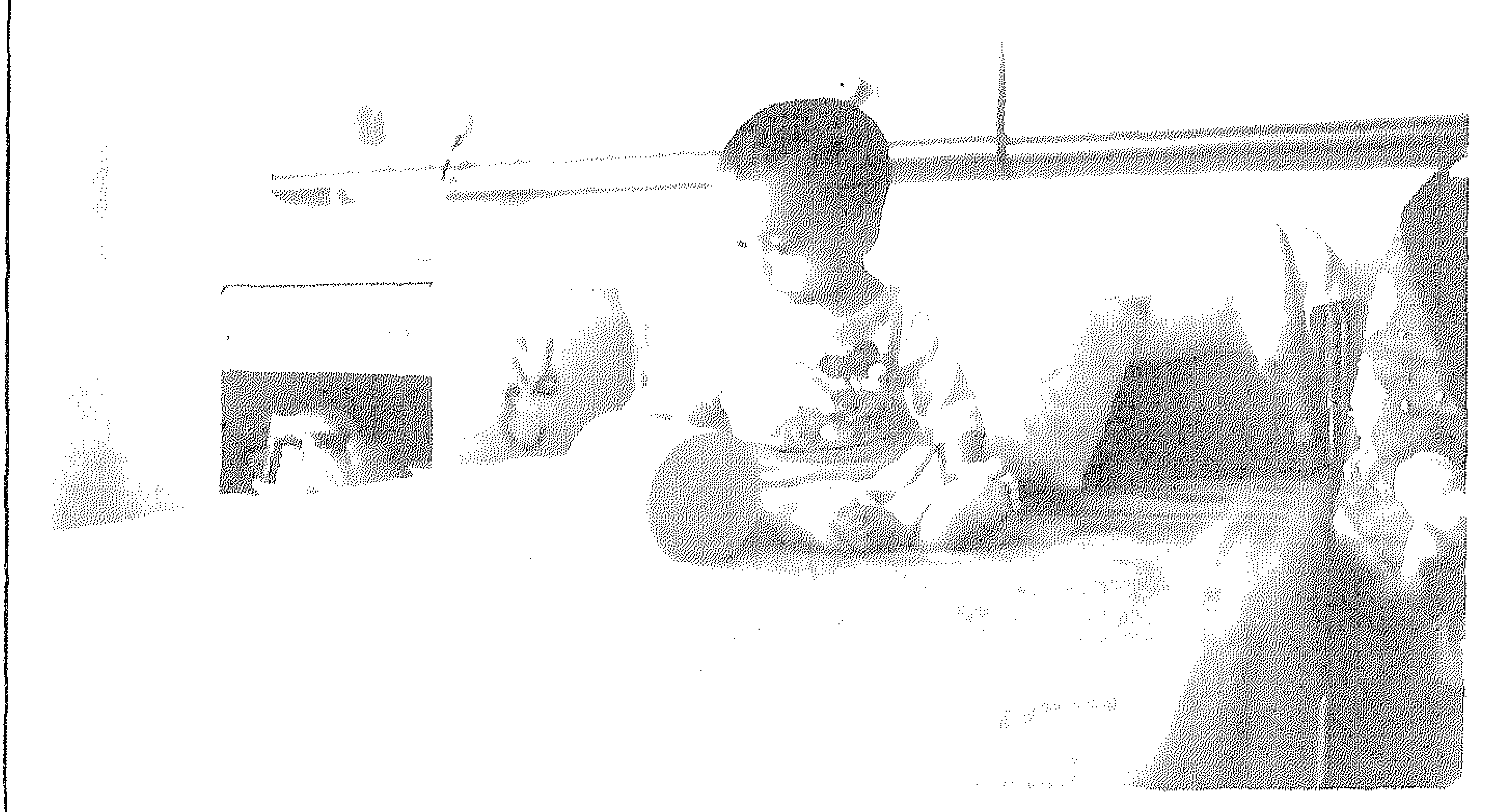


كم .. ؟ ترى كم طفلاً اغتالتهم أيدي زبانية المعسكر الواحد ؟ !

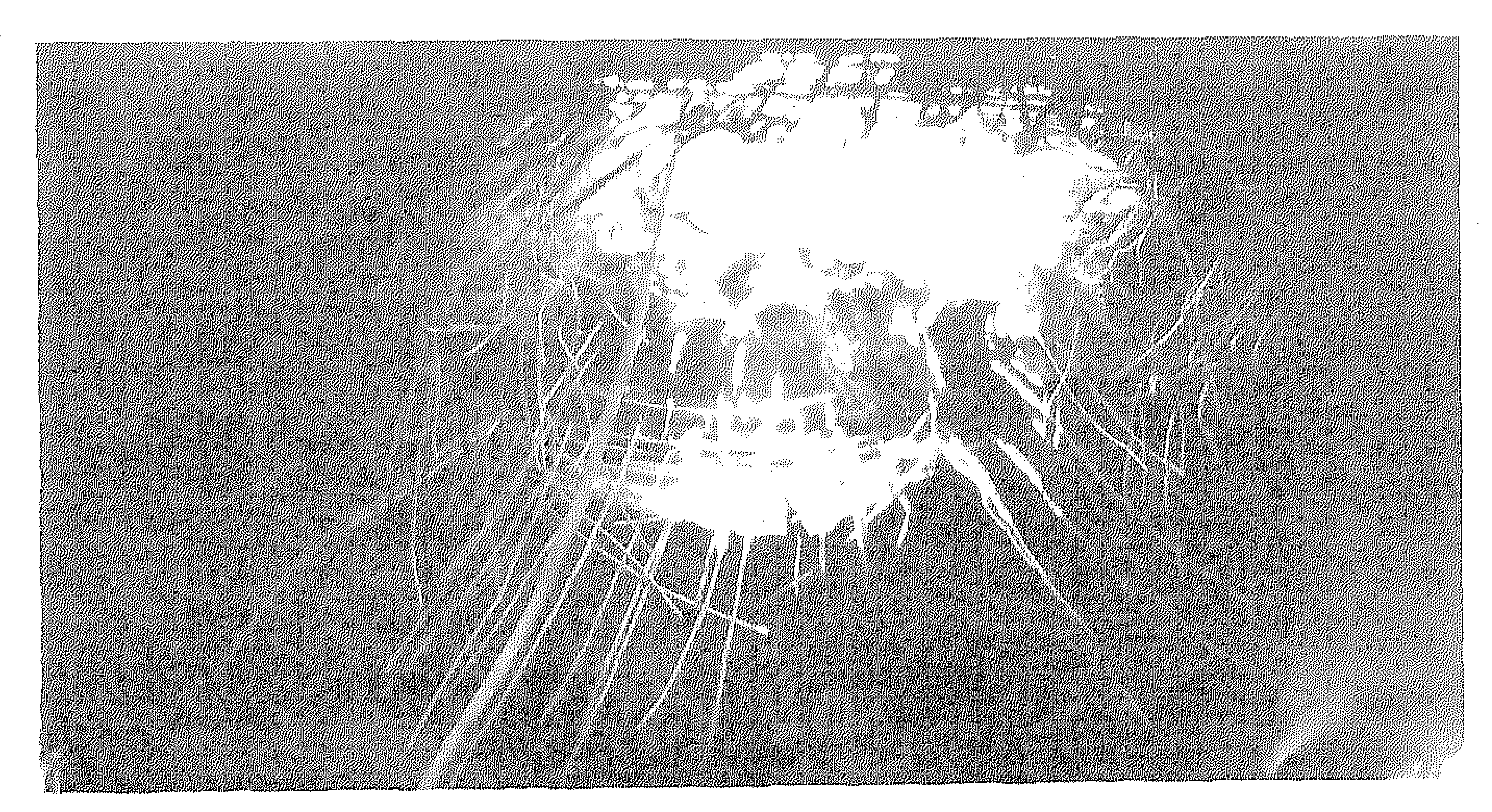


ام غيداء تطل على أشلاء اطفالها في ملجأ العامرية

الكاميرا تحكي المأساة

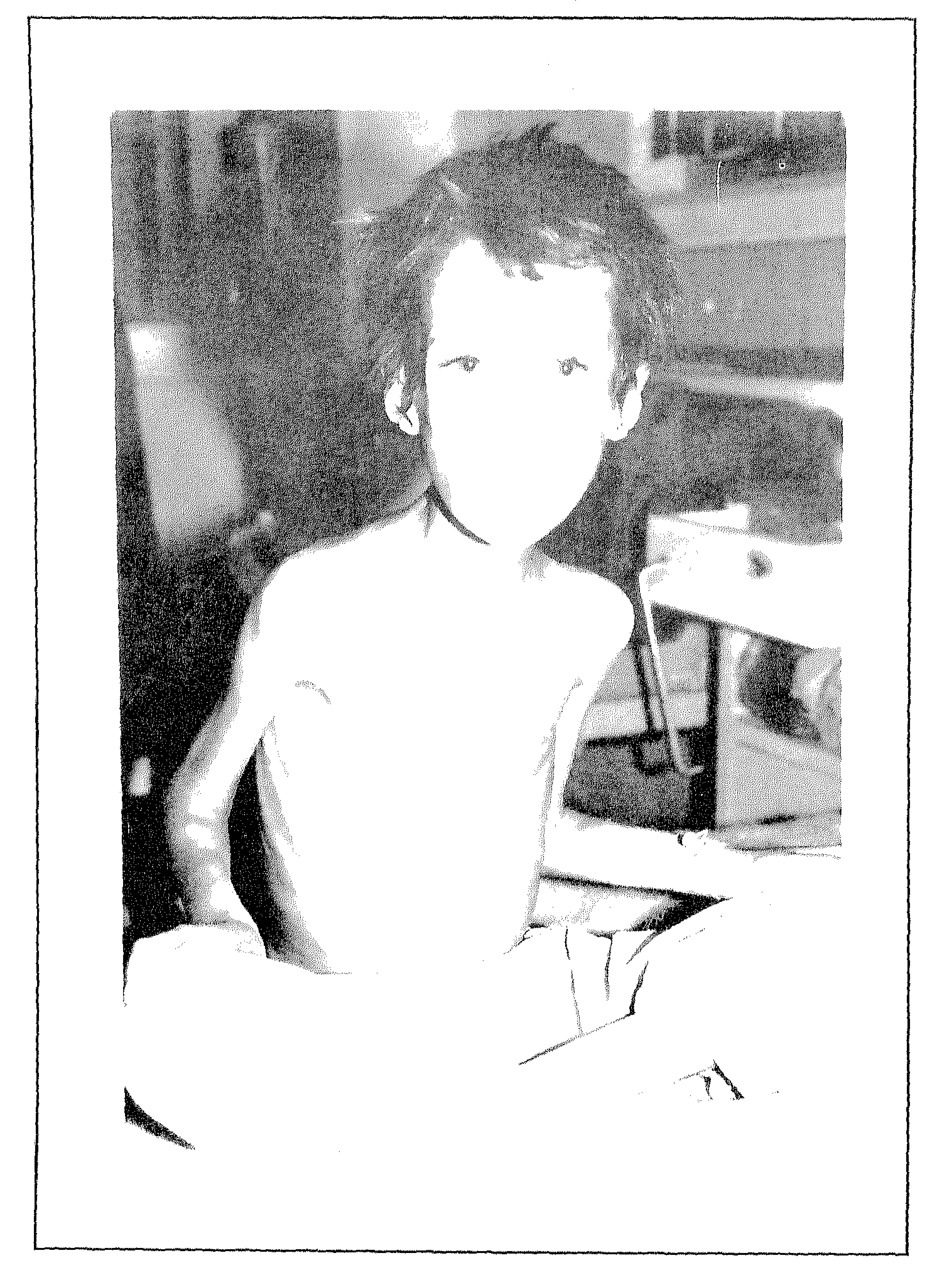


طفل ريف يلهو بعلبة حليب فارغة .. !!

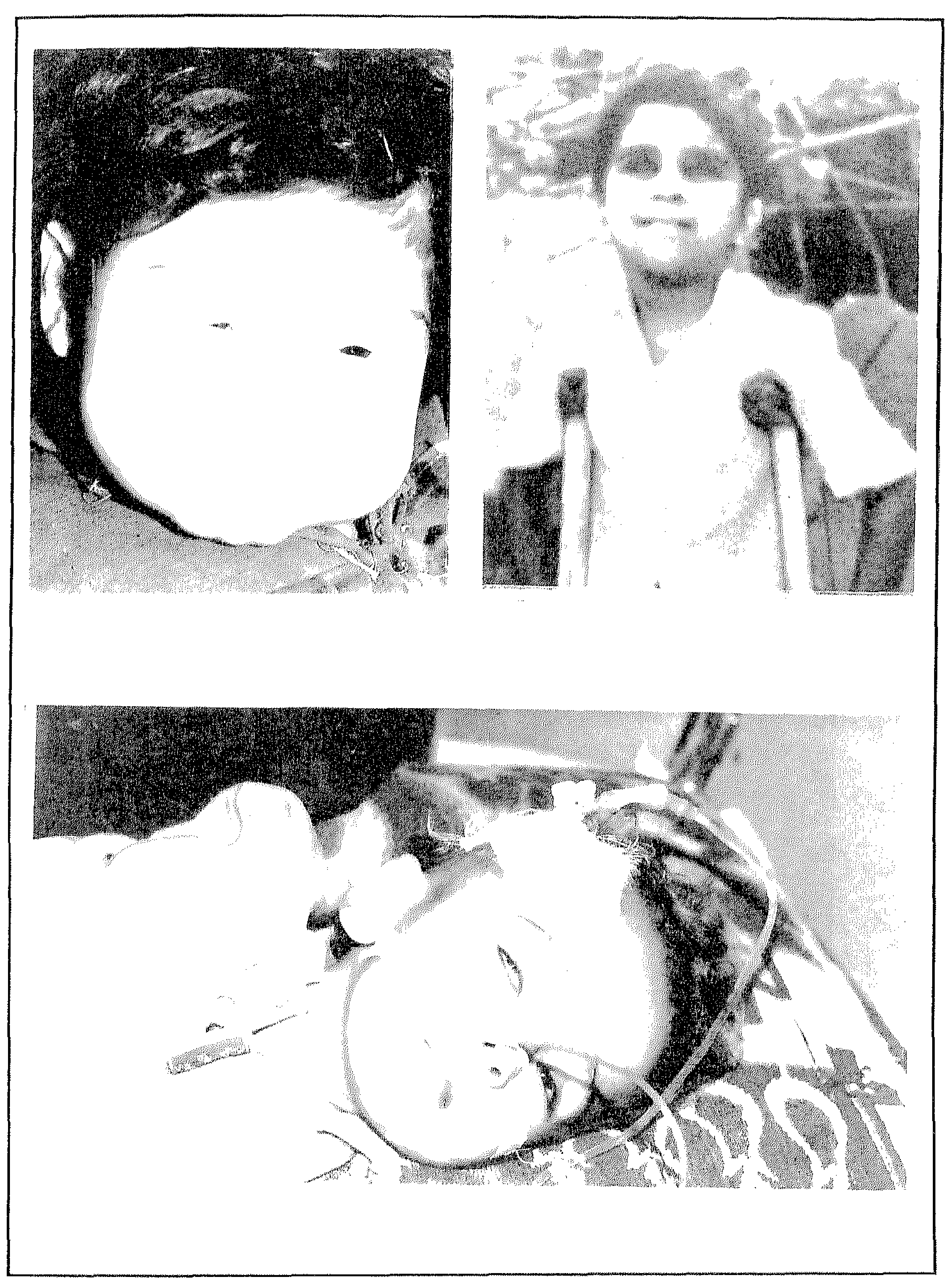


دائرة الموت التي أحدثها الصاروخ الأمريكي في ملجأ العامرية

الكاميرا تحكى المأساة



الكاميرا تحكي المأساة



الكاميرا تحكي المأساة



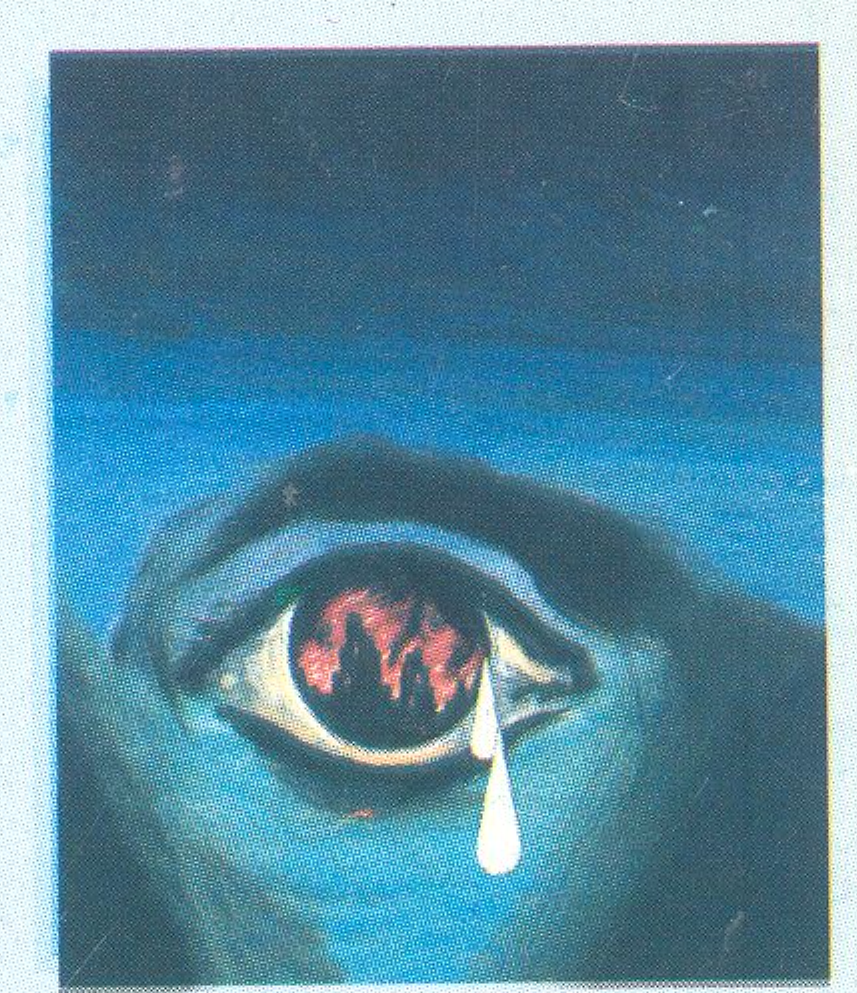
الكاميرا تحكي المأساة



الفهرس

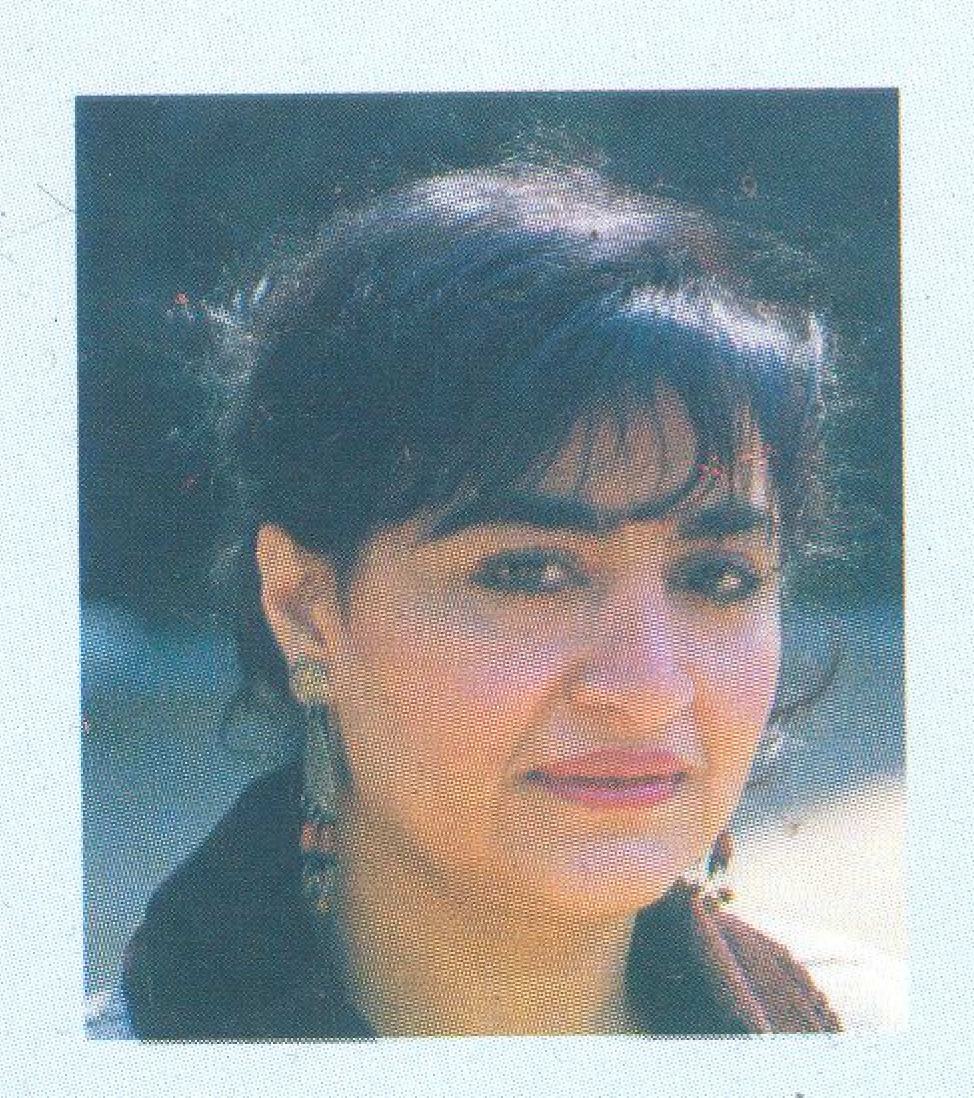
فى العراق

الملائكة تموت..



" إن حصار العراق لم يمنع الشعوب العربية من زيارة أهليهم وإخوانهم فى بغداد والبصرة والكوفة والموصل ، كان التواصل قائماً رغم مشقة السفر على الطرق البرية، وقد انطلقت من مصر أكثر من قافلة تحمل الدواء والكتب والأوراق ولبن الأطفال لأبناء العراق . وضمن واحدة أو أكثر من هذه القوافل سافرت زميلتنا الصحفية وفاء عوض لتتطمئن على ماحدث لأطفال العراق - سافرت بقلب أم حديثة عهد بالأمومة ، وبعين صحفية تريد أن تتوقف أمام كل شىء لتتفحصه وقد انطبعت على قلبها آثار العدوان البشع ، فأرادت أن تشرك كل الأمهات فى العالم فى همومها التى عادت بها من أرض العراق ، أن تتحمل كل أم جزءاً من الهم ، وكل رجل جزءاً من المسئولية ، فسطرت صفحات هذا الكتاب ، وهى لم تقصد أن تؤلف كتاباً تزيد به حجم الورق المطبوع فى بلادنا ، إنما أرادت ان توجه رسالة إلى قلوب العالم لعله يخرج عن صمته وينقذ مايمكن إنقاذه من البقية الباقية من فلذات أكبادنا فى العراق.

خيرى شلبى



الصحفية وفاء عوض .. صاحبة قلم حسبت من القراءة الأولى أنه يلد - أثناء الكتابة - أجنة وورودا وأزهاراً دفلى .. غير أننى اكتشفت بعد حين أنه ينزف ألماً ويقطر لوعة .. المزيد من القراءة أفصح عن السر .. طفلة تم اغتيال براءتها فى عدوان ١٩٦٧ فى بورسعيد مسقط رأسها .. فحملت جنين القهر فى أحشائها ثلاثون عاماً .. إلى أن جاء وقت المخاض فذهبت بحملها إلى العراق تجتر أحزانها .. وتعيد رؤية المشهد الدامى من جديد.. لعل الصدمة تذهب بالصدمة.. فعادت دون أن تلد قهرها .. عادت بحمل جديد وبمزيد من القهر ..فصاغت كل أوجاعها حروفاً تقرؤها على صفحات هذا الكتاب الرائع.

الناشر

704
3
64



دار الأحمدى للنشر